ونعدكم بأبنائنا

تصميم الغلاف

ديما بعاج

ونعدكم بأبنائنا

قصص قصيرة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٧م

ونعدكم بأبنائنا: قصص قصيرة / ديما بعاج.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٧م.- ١٥٢ص؛ ٢٠ سم.
(قصص قصيرة؛ ٤٢).

١- ٨١٣.٠١ ب ع ا و   ٢- ٨١٣.٠٠٩٥٦١ ب ع ا و

٣- العنوان   ٤- بعاج   ٤- السلسلة

مكتبة الأسد

قصص قصيرة

« ٤٢ »

الإهداء

إلى كل

من نطق لغة الضاد

الحذاء

- لن أتراجع، هذه استقالتي وكفى. .

واجه مديره المباشر بهذه العبارة وفي طريقه إلى المنزل ضحك من كلمة كفى، لأنه وإن كان قد نطق بها، لكنّه في الواقع دُفع إليها دفعاً.

فتح باب المنزل وهو يردد: الحذاء لا يرمي صاحبه.

بَعثَرَ نفسه في غرفته لينسى التفكير المنطقي ولو للحظة، وبما أنّ للمنطق سراً غريباً لا يكفي مجنوناً ولا عاقلاً شرّه راح هذا الملعون يلعب لعبته التالية:

إنّ السقف عالٍ وجميل، ويرتكز على أربعة جدران مطلية بشكل لا تنال منها الرطوبة، وهذا كلّه لا بدّ له من أرض يظلّها هذا السقف في الظاهر بينما هو يدهسها في الحقيقة، وهذه الأرض من تكون إن لم تكن أنا؟

وبالفعل أخذت الأقدام تطؤه، حاول أن يقول: الحذاء لا يرمي صاحبه.

لكنّ الأقدام مرّت بحنجرته أولاً ومن ثم ذاكرته!

قَدَمٌ بحذاء عالي الكعب، إنّه لخطيبته التي أعجبت بصلابة مديره، وذهبت معه في رحلة عمل لم تنتهِ بعد..

(لماذا وقد كنتُ أحبّكِ)؟

وهناك قَدَمٌ بحذاء إيطالي فاخر هي بالتأكيد لمديره.

(طَرَدْتَني ولم أُقَصِّر يوماً في عملي)!

لكن لِمَن هذه الأقدام التي تنتعل أحذية رياضية، وتجتاز الرقاب بسهولة لتصل إلى هدفها؟ إنّها لزملائه في العمل.

بكى طويلاً: خلّصني يا ربّ من الأقدام.

ثم استسلم لنوم عميق دام مدّة الألم الذي بداخله، وعندما أفاق كان المنطق يُضَمّد جراحه على الشكل التالي:

لقد كنتَ تعمل في مكان أشبه بالحذاء، والحذاء كان واسعاً أو ضيقاً، المهم أنّه لم يناسبكَ، وببساطة تخلّصتَ منه ورميته بعيداً.

هزّ رأسه وأجاب:

نعم، فالحذاء لا يرمي صاحبه.

ربّما في محطة

منذ فترة وهو يفكّر بالصمت، ما الذي دفعه إلى احتراف مهنة الرَّسم ليس الإبداع فقط ولا لذة العمل... وتلاحقت اللاءات أمامه على طول الطريق، ولحظة وقع التلاحق السريع في فخّ الثبات، ولأوّل مرّة، هبط المسافر في المحطة الأولى مع بقية المسافرين للاستراحة.

ضحك في نفسه: أين الراحة طالما أني حملتُ رأسي معي وها نحن نتقاسم التذكرة نفسها؟!.

ربما الخطأ ليس خطأه وحده، فالجميع قد فعلوا ما فعل.

سحب آهة من سيجارته، نفخها صفعة بيضاء في وجه الرجل المقابل له الذي ابتسم فوراً، ومن دون أن يستاء من هذا التصرف الوقح.

- البسمة ضريبة يفرضونها على أفواههم، ربما هي كذلك!

نطق هذه الجملة، وبصق فوراً؛ لأنه تذكّر أنّه سمعها من حكيم مرموق لا يملك في وجهه إلّا أسناناً بيضاء تُشرق للحيوانات، وللبشر على حدّ سواء.

(هي جملة صحيحة على كل حال، لو أنّي سمعتها منه دون أن أراه).

بصق مرّة أخرى فتبلّل ثوب الآنسة الجالسة بقربه، توقّع انفجار قنبلة يدوية أو كلاميّة أو على الأقل بصفة مماثلة، وبعد أن تعب من الانتظار نَظَرَ في وجهها باستغرابٍ قابَلَتْهُ الفتاة بأجمل ابتسامة لديها، ففهم حالاً أنّ هذه البسمة ليست ضريبة اضطرارية.

(ربما هي قانون ينهي أي خلاف).

وبالفعل ها هي تترك مكانها لتجلس بجانبه.

- آسف.

- لا تكن سخيفاً.

- ما هو طموحكِ، وكيف تقضين أوقاتك؟

- أحب الحياة بكل أبعادها، الشمس، الطيور، وأهم من كلّ شيء الجمال الذي دفعني على الفور للتعرّف إليكَ.

وبعد فترة صمت تَفَوَّه بها الحديث أخرج رسومات كثيرة من حقيبته، فصافحته الفتاة وهرولت.

رتّب رسوماته على الطاولة أمامه، كان بعضها ينتظر الخطوط النهائية والتلوين وبعضها الآخر ينتظر من يلقي عليه نظرة ولو بدافع الفضول.

وفي الحال أيقن أنّ الوجوه طردت من ملامحها الفضول واتسعت لكل بسمة.

صرخ في وجه الرجل الجالس أمامه:

لماذا نحبّ وعلى الدوام شيئاً معيّناً لنكره بقية الأشياء بحقد لا يطالبنا الحقد به؟

استقرت الصرخة في يد الرجل، صافحها وجلس معها قائلاً:

- لماذا تصرخ، ثم تغضب، ثم تبتسم؟! حدّد موقفك على الأقل، ولا تتصرف كالمجانين!!

- أريد أن أصرخ وأغضب وأبتسم، صدقني، أنا أستطيع كل ذلك في آن واحد. هل تفهمني؟

- بالتأكيد، ولن أتركك إلّا وأنتَ تبتسم بملء جسدك، اسمع: أنتَ تملك أوراقاً كثيرة أحتاجها بشدّة في لفّ السندويش، فلنساعد بعضنا، التعاون مهمّ جداً، خذ هذا هو ثمنها، ولكن أَسْرِع قليلاً؛ لأنّ القطار سيغادر حالاً -شكراً لك، ربما تكون محقّاً، فالتعاون سبيل البسمة بين البشر.

حَمَلَ بسمته وبقية أوراقه وأجلسها على مقعده في القطار، ودّع الركاب، قفز إلى الطريق، وبدأ البحث عن عنوانه الأكيد الذي أضاعه في محطة ربَّما....

طفلة في الخمسين

كانت سعيدة جداً باتخاذ دور الأمّ، تتكلّم، وتتكلّم باستمرار فَرِحةً بالأمومة التي حَبَتها إيّاها الطبيعة، حتى إنّي أُتخمتُ من وجبة النصائح التي كانت تمليها على من حولها كي لا تنسى إعادتها على أولادها في البيت.

وبعد أن وَجَدَتْ أخيراً فرصة ليستمع الناس إليها راحت تستثمر الوقت، هي لا تريد إضاعة لحظة واحدة، وها هي تردد، وتردد ما تفعله باستمرار في البيت، حتى إنّ قصة حياتها باتت كتاباً لا ينقصه سوى التجليد للنشر.

بدأتُ أُحدد شعوري منها، وذلك بحكم طبيعتي التي تقتضي منّي مواقف سريعة تجاه ما يجري حولي، حاولتُ ألّا أتحامل عليها؛ لأنّي عندما قرأتُ السعادة في ملامحها، وهي

تتكلم، شعرتُ أنّها تعيش العشرين عاماً على الأقل تلك التي ذهبت هباءً من أعوامها الخمسين.

كانت تتحدّث وتتحدّث، ولا تكفّ عن الابتسام إلى كلّ من حولها لتستجدي الموافقة عمّا تقوله، ثم تبحث في أعماقها عن شيء حقيقي جداً وخاص جداً تبذله أمامهم لتؤثر فيهم.

كنتُ أسمعها وأحسّ بالسدود التي تنفجر داخلها لتغرقها ومن حولها في سديم من الكلام لا يعرف الصمت.

وذهبتُ أبعد من ذلك، فحاولتُ أن أحدد مصدر اللطف عندها، نظرتُ مباشرة إلى العينين، فعرفتُ أنّ المرأة التي تتكلم وتتكلم ما هي إلاّ حالة جُبِلَت من الألم، وطيف أحلام لم تتحقق وعرائس متحركة قُطِعَت خيوطها فَهَوَتْ قبل أن تُكمل رقصاتها، ولم يبقَ لها من الحركة سوى الكلام، فتحوّلت إلى طفلة في سن الخمسين.

المشرحة

(المعادلة صعبة كيف تبقي رأسك مرفوعاً يا سعيد على جسم له أقدام كأقدامك تنتعل حذاءً ممزّقاً)؟

صعد درجات الكليّة، دخل إلى القاعة، قبع في آخر مقعد، حدّق في السقف، ومن ثم قرأ كلمات والده أمامه على السبورة:

لقد كادت تلك الكمية من الحبوب المهدّئة أن تقتلك، أرجوك يا ولدي ألّا تفعل ذلك بنا مرة أخرى.

وبعد قليل رنّت زغرودة أمه في أذنه، إنها تزغرد منذ شهر، فابنها على قيد الحياة، وبعد أربع سنوات سيتخرج وسيتوظف وسيشتري بيتاً كبيراً وسيتزوج.

تمتم بينه وبين نفسه:

لكن أين هي الوظيفة؟ هل هي بانتظاري؟ أين هو ثمن المنزل؟ أين هي الزوجة التي تقبل بي؟

أحسّ بالغضب، فلملم كلّ سيناته، فتح فم الطالب النائم بجانبه، وسرق سيناته أيضاً ورماها بعيداً.

استمرّ في التحديق بالسّقف، ممّا استثار الأستاذ الذي وبخه قائلاً:

الدرس هنا أيها الغبي، وليس في السقف.

تحسس سعيد علبة الحبوب المهدئة التي يخفيها في جيبه، ومن ثم أجاب:

لكن السقف عالٍ وجميل، ويستطيع أن يهبط فوق كل الرؤوس ويحطمها.

- انتبه وإلاّ طردتك.

- سيبويه، أيّها الفعل الماضي القبيح، دعني وشأني.

أخيراً انتهت المحاضرة، خرج إلى الساحة، ضحكات وأصوات وحوريات هنا وهناك.

مسحت إحداهن الكحل الذي سال بفعل الحر، سَمِعَها تهمس لصديقتها: أهو أثقل وزناً أم الذبابة يا ترى؟

الهمسة تحوّلت إلى صرخة عالية، انتقلت الصرخة إلى كل العيون حوله لتقول له:

أنت بنطال يمشي على وجه الكرة الأرضية.

أجابهم بصمت:

يا لك من تعسٍ أيّها الفيلسوف إذ آمنت بأنّ فكر الإنسان يمثل وحدة تامة، ويكتسب وضوحاً من خلال كلّ جزء، فما رأيك إذن بهذه الأجزاء التي لا كلّ لها؟ ما قولك بهؤلاء الفتيات اللواتي حملن مشعل العلم، ودخلن الجامعة وأصبحن حوريات يتشمسن على ظهر سفينة الحب؟

أحسّ بالتقيؤ، وبصورة لا شعورية دسّ يده في جيبه، وأمسك العلبة وهو يقول: يبدو أنّ الوقت قد حان لأنهي بكِ عذابي.

تابع المشي، فإذا به يلتقي صديقه أحمد الذي يدرس في كليّة الطب:

- سعيد أين أنت يا رجل؟ ألا تسلّم على أصدقائك؟

- أهلاً بك.

- الجو رائع هل تذهب إلى المشرحة؟

صحا سعيد من شروده على قسوة هذا السؤال الذي تفوح منه رائحة الموت.

ثمّ قال: يبدو أنّه لا مفرّ لي منها، هيا بنا فلنذهب.

الطريق لم تكن طويلة ، إعلانات كثيرة، أفلام ستعرض، طلّاب كثيرون، أخيراً وصلا إلى مكان لا ينتمي إلى العالم الذي كانا فيه قبل قليل، قبر من القبور على وجه الأرض، تذكّر جده الذي مات منذ فترة قريبة ومنظر الكفن الذي جعله ينتفض ولا يسيطر على أطرافه طوال الليل، تذكّر تجربته المريرة مع الموت والتي لا يعرف متى تتكرر، أراد الهرب من ذلك المكان، لكنّه لم يستطع، لذلك قرر أن يواجه الموت، وهو على قيد الحياة وبكامل وعيه.

تقدّم مسرعاً إلى هذا الموعد مع الأموات، ودخل عالمهم.

صمت رهيب يُغرِق كلَّ الأصوات المنبعثة من الأحياء الأموات حولهم، عيون باردة تُجَمِّد كلّ العيون الفضولية التي تنظر إليهم.

همست إحدى الجثث في أذن سعيد:

أغبياء يضيّعون وقتهم في تشريح الجثث، لينظروا إلى أنفسهم، وسيعرفون ما يريدون معرفته.

التفتَ سعيد إلى صديقه وقال:

مواجهة الموت مباشرة أمر فظيع، لكني لا أشعر بالخوف.

ولم يكد سعيد ينهي جملته حتى تلقى صفعة قوية من إحدى الجثث التي راحت تولول وتصرخ فيه:

ألا تخجل من النظر إلى مفاتني؟ يا للوقاحة!

ثم رفعت الغطاء لتستر به جسدها، ونامت باطمئنان متجاهلة اعتذار سعيد.

تحسس سعيد قلبه، فوجده مازال مكانه، ابتسم هامساً:

ماذا لو تخيل كلّ زوج زوجته بهذا المنظر؟! إذن لكانت انقرضت البشرية.

تابع جولته مدققا في الوجوه وإذ بدبابيس تخزه في كتفه، استدار ليجد أنّها عظام كفّ جارهم الذي يعمل في المزرعة المجاورة، والذي بادره بقوله:

مرحباً يا ولدي، لقد متُّ أوِّل أمس إثر تعرضي لحادث، واليوم سُيشّرِحونني.

- كيف هو شعورك، وأنت ميّت يا عم؟

- الحمد لله على كلّ حال، لكن قل لأمّ العيال أن تبعث لي بوسادتي.

- إذن لا الحي مرتاح، ولا الميّت.

- لا، على العكس تماماً، فأنا هنا على الأقل أجد وقتاً للراحة، ولا أحد يسرق تعبي وعافيتي؛ لكن مع ذلك فالحياة تستحق أن تُعاش، فقط لا تكن مغفّلاً مثلي.

بدأ سعيد يشعر بالراحة أكثر فأكثر، لعلّه اقتنع بالابتسامة الساخرة المرسومة على الأسنان المسروقة الشفاه، إنّهما توءمان كلّ منهما يسكن مكاناً مختلفاً، أو لعلّ ترحيبهم البارد أشعره أنهما أصدقاء مع فرق التوقيت، ممّا سبّب نوعاً ما وفي البداية هذا العداء المكفّن بالاشمئزاز.

- هيه هيه سعيد.

تساءل باستغراب:

من؟ حضرة المختار لماذا أنت عارٍ؟ أين جلابيتك التي فصّلتها في العيد؟ لا تقل أنّك تبرعت بها لفقراء الضيعة!

- يا أخي ليس وقت المزاح، أنا أريدك أن تنقل اعتذاري لكلّ من لهم بذمتي مال من أهل الضيعة، ولم أستطع تسديده، ولتستغفروا لي، ولتترحموا عليّ جميعاً.

حفرت الكلمات أخدوداً في مخيّلة سعيد، ففتح الباب الموصد في نهاية الممر الطويل، مدّ يده، صافح المختار قائلاً:

سيدي أريدك أن تقرضني بعض المال لأدفع مصاريف الكلّية والكتب، وأشتري حذاء.

هزّ المختار جمجمته ساخراً:

انسَ كلّ ما قلته لك قبل قليل، عشنا وشفنا ابن أبو سعيد يشحذ، أنصحك أن تدرس وتشتغل، هيّا اذهب من هنا.

ما إن ابتعد سعيد بضع خطوات حتى شمّ رائحة دخان أيقظته من ذهوله، أمعن النظر فإذا بسائق السيارة يُلَوِّح له، وهو يدخن سيجاراً، ويضع نظارة شمسية على عينيه.

ضحك سعيد وسأله: من أين أتيت بهذه الأشياء؟ لقد كنتَ تضع سجائر الشرق في علبة دخان أجنبية......

أجاب بصوت منخفض ، وكأنّه يخاف أن يسمعه أحد :

لقد بعتُ السّيارة، واشتريتُ بثمنها أشياء كثيرة لم أحصل عليها في حياتي لذلك قررتْ زوجتي الطيبة أن تدفنها معي؛ لكن في الحقيقة أنا نادم فقدْ كانت السّيارة المورد الوحيد لعائلتي.

ثم أصلح وضعية النظارة الشمسية فوق أنفه ، وتابع قائلاً: وها أنا أنتظر الشّمس، لكن من دون جدوى، فبماذا تنصحني؟

لم يجد سعيداً ما يقدّمه للسائق سوى الألم الذي بصدره، فأخرجه في الحال ومدّده بجانبه مشيراً له أن يبتعد قليلاً، ومن ثم ودّعه بحرارة، صافح بقية الجثث، فتح أصابعها الزرقاء، خبأ بينها همومه وأوهامه ومتاعب أصدقائه وعلبة الحبوب التي لم تفارقه قبل الآن، وخرج مسرعاً، وهو يردّد شيئاً واحداً:

عندما أيأس من الحياة سآتي فوراً إلى المشرحة.

نهر الرعب

عشر سنوات مرّت على آخر طوفان اجتاحتنا المياه فيه، وحفرت قنوات وأخاديد في عقولنا امتلأت شيئاً فشيئاً بالرطوبة والعفن والانتظار.

متى يكون الموعد القادم؟ لا أحد يدري.

هل سيكون الدمار كليّا أم جزئيّاً؟......

ولطالما هيّأت نفسي للغرق والتورم إثر ابتلاع كميات المياه الهائجة، وفي أفضل الأحوال إن عشت فللنهب والسرقة من قبل لصوص مدينة الأسياد.

لقد كانت سنوات إعادة تأهيل ما بعد الطوفان أقسى من الحادثة ذاتها، صدقني إنّ أصعب مهمة على الإطلاق هي أن تُقنع طفلا بأنّه سيستيقظ غداً ليجد والديه بجانبه، أو أن تُجبره على شرب كأس الحليب بعد أن تأذَّت معدته بسيوف الحصى

والرمال والمياه القاتلة ، هذا عن الصغار في بلدي ، ولا عتب إذا كنت أنا والكثيرون أمثالي ننام ونحن نمسك بطرف السرير أو الطاولة من دون إرادة منّا، ونظلّ نتحرك ونخبط بأيدينا وأرجلنا حتى نستيقظ ونحن على الأرض، من مات غرقاً تعذَّب ثم ارتاح، أمّا نحن الناجين فما زلنا نتعذّب، وباختصار نتحسّر على الماضي، ونعاقب الحاضر، ونظلم المستقبل، لكن وقبل أن أفقد احترامي لإنسانيتي وللبشرية على الإطلاق، وفي لحظة إنصاف للمستقبل الذي قد لا يكون بمقدار ما نتوقعه من سوء، انتابتني نفحة حبّ للحياة ونظرت لأولادي وزوجتي وصورة والدي المعلقة على الحائط (أبو مخلص) شيخ العطّارين في البلدة -والله - لقد سمعته يقول: هيا...

تلفّتُ حولي متسائلاً: إلى أين تريدني أن أذهب؟

أجاب : إلى حيث يجب أن تكون.

ومن فوري توجهت لمحل العطارة لأفتحه من جديد، ولأتابع ممارسة مهنة أجدادي، ولكن يا للأسف، فالمحل أنقاض حجارة على أنقاض بشر وبالرغم من أنّه قد تمّ تنظيف المدينة من سنين إلّا أنّ المأساة ظلّت تعضّ على شفاهها، ولا

أحد يستطيع تنظيف حلقها من الشتائم والسباب واللعنات على الظلم وعلى الخوف وعلى تَعَنُّت النهر والمدينة المجاورة.

وبمواجهة رائحة الموت المنتشرة حولي لم يكن أمامي سوى العطور، كنتُ بحاجة إلى كلّ تلك الكميات من الزهور والأوراق والنباتات لأستنشقها دفعة واحدة، فيتحسّس أنفي وتسيل الدموع من عينيّ على من قضى غرقاً. وخلال أسابيع جهزتُ معملا صغيراً، هو عبارة عن غرفة في منزلي تشرف مباشرة على النهر، وطلبتُ من عملاء والدي في الخارج تأمين كميات من الزيوت المستخلصة من أزهار كثيرة منها، اللا فندر والياسمين وزهر البرتقال والقرنفل والنرجس وغيرها، وبدأتُ أعمل من جديد، وأخلط الزيت العطريّ المركّز مع الماء المقطّر والكحول ثم أضيف مادة الفوّاح التي تنثر العطر في الأجواء، وكل هذا وفق أسرار وفنون الصنعة التي أُتقنها، لأحصل في النهاية على أنواع غريبة وفخمة من العطور أعرضها على زوجتي المتميزة بحاسة شمها، ومن ثم أقوم بتصدير أغلبها للخارج، وطوّرت نفسي وأنتجت زيوتاً صناعية مشابهة للزيوت الأصلية، ولهذا ذاع صيتي في بلدي وخارجه، إلّا أني لم أنسَ النهر لحظة، ولم أنسَ ما فعلته مدينة

الأسياد بنا -تخيّل إذا طاوعك عقلك - لقد فتحت السّد الذي تتحكم به لتصنع أقذر طوفان يدويّ تفوّقت فيه البشرية على الطبيعة، حَصَدَ الأخضر واليابس وأودى بحياة مدينة كاملة، مات من مات غرقاً، ومن نجا مازال يُجَمِّع أشلاءه وهو ينتفض من حلاوة الروح، وهذا ما دفعنا إلى تدعيم جدران منازلنا وجعلها عالية قدر المستطاع، ولولا الشبابيك لاعتقدتم أنّنا نزلاء أحد السجون، لكن ما باليد حيلة، فهذا حكم النهر على الضعيف أو بالأحرى حكم مدينة الأسياد التي عاقبتنا، لأنّنا تأخرنا في دفع الضريبة لها.

استمريت في العمل بظل هذه الذكرى التي تأبى أن تظلّ ذكرى، لقد جعلتْ قلبي يتزامن مع كل رجفة ماء غير طبيعية فيه، وكثيراً ما كنتُ أترك ما بيدي لأحدّق فيه وهو مستكين وهادئ، إنّ الوحوش النائمة في قاعه إلى أَجَلٍ غير مسمى لا تُطَمْئِن، ومتى تدق بذيولها ناقوس الخطر لا أحد يدري؟! ولكن بالرغم من تَشَوُّش عقلي ومن أعمالي وأشغالي لم أتوانَ يوما - وأنا في شرفتي - من أن أفرغ محتويات زجاجة كبيرة من العطر الطارد للشياطين في حلق النهر.

ومع مرور الوقت تغلبتُ شيئاً فشيئاً على مخاوفي، وازدهرت تجارتي بالعطور وصرتُ المُصَدِّر الأساسيّ للشرق والغرب، ولم أبخل أنا وغيري من التجار والأغنياء في دعم خزينة المدينة، فانتعش الاقتصاد وعادت للمدينة معالمها بعد طول غياب، واستمرّ الحال على ما هو عليه إلى أن جاءني في أحد الأيام وفد من مدينة الأسياد طلب مقابلتي أنا وبقية التجار، ولقد دار الاجتماع طبعا بعد التهديد والوعيد حول نقطة أساسية، وهي احتكار تجارة العطور بشكل خاص وأنواع التجارة كافة بشكل عام لصالحهم، بحيث يتمّ التصدير عن طريقهم باعتبارهم الوكلاء الحصريين عن مدينتنا، وأعطونا مهلة قصيرة وفي حال رَفَضْنا فالجواب على الشكل الآتي: حصار -عقوبات اقتصادية - طوفان.

إذن يبدو أنّ حالنا لم يعجب مدينة الأسياد ، وها هي تُلَوِّح بأنياب وحوشها وسم أفاعيها، آنذاك انتابني القلق، ولم يعد باستطاعتي النوم، وأُصبتُ بالتشنج في عضلات فكي السفلي -وما أحلى الفالج مقابل ما عانيته - حتى كاد الخوف من أن يكون مصيري كمصير جاري يقتلني، فقد تسبّب الخوف والقلق في

فقدانه لعشر سنوات من عمره تلت نجاته من الطوفان المُفْتَعَل، مازال يقضيها على كرسي، مع أنّ الطبيب أخبره أنّه لا يعاني من أي مرض ويستطيع التحرك والمشي لو أراد.

فعلاً صَدَقَ من قال: «لا أعرف رفيقا أسوأ من الخوف»، لقد حاصرتني المياه وأحاطتني من كلّ ناحية، حتى بدأ النهر يتسرب من مسام جسدي، فابتعدتُ عن زوجتي، وهجرتُ فراشنا خوفاً عليها.

وفي أثناء ذلك كانت تهديدات مدينة الأسياد تتزايد، ولهجتهم تتصاعد وبالرغم من وحشيتهم هذه، ومن حالة الضعف التي أعانيها، إلّا أنّني استطعت وعلى الدوام أن أردد على مسامعي مقولة «لا تقلق بشأن شيء لم يحدث وقد لا يحدث»، وإذا سألني أحدٌ كائناً من يكون: وكيف لن يحدث وهم عازمون على فتح المياه لإغراقنا؟

سأجيب حالاً وبصوت تعلّق بحباله الصوتية حتى لا يغرق: إنّها المهلة التي أعطونا إيّاها، حيث عملتُ خلالها أنا وأصحاب الشأن في مدينتي بالخفاء طبعا، مع مقاولين من خارج البلد على

حفر قناة يسيطر عليها سدّ يقع على خزان استيعابه ملايين الغالونات من المياه لتخزينه وتوزيعه على الأراضي الزراعية المنتشرة على مساحات شاسعة في القرى وخصوصا في فترات الشحّ المائي، بهذا أقنع شركاؤنا أسياد المدينة تلك، كما أقنعوهم بأنّهم أصدقاء لهم وأعداء لنا وأنّ هذا السدّ هو مجرد استثمار للمياه وفي اللحظة التي تُقرر فيها مدينة الأسياد فتح سدّها ومعاقبتنا، سيساندونهم ويتعاونون معهم بفتح السدّ الجديد وإغراقنا، بينما هم في الحقيقة وعلى أرض الواقع سيقومون بإفراغ هذا السدّ من الماء لاستقبال المياه القادمة وإنقاذنا.

ولكن مع كل ذلك ومع كل إجراءات الأمان التي اتخذناها كنتُ متوتراً وخائفاً:

ماذا لو كُشِفَ أمرنا؟ وهل سنتمكن من تشغيل بوابات السدّ بحيث لا يزيد منسوب المياه فوق السدّ؟ ماذا لو كُسر أحد أنابيب التصريف وتدفقت المياه من أسفل السدّ أو من خلاله؟ أو لو انهار السدّ بكامله -لا سمح الله- ألن تذهب عندئذ كميات المياه والطين لتستقرّ في جوفنا؟

وأخيراً عندما تتعب وتملّ مني [ماذا وهل ولو] كانت ترفع أيديها معي ومع أهل مدينتي، ونبدأ جميعنا بالدعاء: يا إلهي! أبعد عنّا الهزّات الأرضية أو طيف أي زلزال.

وعبثاً حاولت أن أُنَظِّف عقلي، وأن أثق بالسدّ الجديد وبالاحتياطات والجهود المبذولة، وكم عذبني ضميري إزاء الأفكار السيئة التي راودتني لأنّها لو تحققت فعلاً سأكون قد جذبت الخراب لمدينتي دون قصد.

في تلك الليلة، الليلة الأخيرة للمهلة تدفّق أهل المدينة عليّ لشراء أنواع من العطور المُرَكَّزة الخاصة بالموتى، وهي ذات رائحة ذكية ورخيصة الثمن في الوقت نفسه، دهنوا بها أجسادهم ليلقوا وجه ربهم برائحة المسك والعنبر، وأوصوا بعضهم بأن يتعطّر بها مَن ينجو، قبل صلاته على مَن فَقَدَ مِن أحِبَّته.

مرّ الوقت أبطأ من سكين يحزُّ عنق نعجة وسط قرقعة التوابيت وحشرجة الانتظار، مزَّقني رهاب الماء الذي عانيته وأعانيه.

من الشرفة إلى الداخل والنهر لا يزال هادئا، كنتُ أجلس قليلاً ثم أذهب لألقي نظرة عليه، جمعتُ كلّ الأقراص المهدئة

التي أتناولها ورميتها له سائلاً إيّاه: ستقوم بمعاقبتنا أيّها المتواطئ؟ غداً عندما سيرتفع ضغطك أتراه سيكون أعلى من ضغط دمي الآن؟ ومن منّا سينفجر قبلاً؟

ولم أكد أنهي جملتي حتى أمسك بي النهر وسحبني لكي أستقر في بطنه، حاولت بدوري إغراقه بسكب براميل من العطور فيه وأنا أصرخ: متْ يا صاحب الرائحة النتنة.

وبكل ما أملك من خوف وأمل قاومته، لم أخف لحظة من الغرق، بل من الاستسلام للغرق، ومن ذلك الشعور بالتضاؤل، صرختُ لعلني أُنَفِّس عن غضبي فيخف وزني وأطفو على السطح، لكنّ الزبد هو الذي طاف، قلتُ في نفسي: لا بأس فالزبد يدل على أني حاولت على الأقل أن أصرخ.

ووجهاً لوجه نظرتُ في رمله وطينه وحصاه، وقلت: لكنّي أعدك بأكثر من الصراخ أنت وأسيادك.

أغمضتُ عينيّ لأجنّبهما رؤية النهر وانتقامه -يكفيهما الشعور بالألم، ولأدع الرؤية وشأنها - لكنّ فضولي أبى أن يحقق ما أردت، وبالرغم مني جعلني أفتح عينيّ، و يا لهول ما رأيت:

كان النهر صامتاً كأخرس، هادئاً كمشلول، انتهى الليل والنهر هادئ وها هو الفجر لم ينسَ مدينتنا ومن ثم الصباح ولا شيء سوى الهدوء الذي يسبق الهدوء، فيا للعجب ماذا حدث إذن؟ وهل تراجعت مدينة الأسياد عن تهديدها؟ أم أنّهم نفذوا ما نووا عليه، فباءت خطتهم بالفشل، ونجحنا؟ هل غرق الجميع ما عداي أم أنّي معهم في قاع النهر؟ ولو أنّي متُّ فَمَن ذا الذي يتكلّم الآن؟!

لابدّ أنّها روحي تسحب كلماتي معها وهي في الرمق الأخير، لكن مهلاً يبدو أنّه لا هذا ولا ذاك صحيح، فأنا هو من يتكلم الآن ويستمع ويجيب ويُعلن:

لم نخف من الأعداء، فخافوا منّا.

تمسّكنا بمدينتنا، فتمسّكت بنا.

لم نهرب منها ، فلم ولن تهرب منّا.

ما بين الحروف

رغم جملها الواقعيّة التي تزيّن بها كلّ أحاديثها، رغم فواصلها المزروعة بين دفق الأشياء التي تتلفّظ بها لتقنع من حولها بمحاوراتها الناجحة، ورغم النقطة الكبيرة التي تنهي بها أي حديث لصالحها، تتحوّل أحياناً إلى إنسانة مختلفة تماماً تحاول أن تنطق كلمة واحدة كلمة أحبّكَ، لكن من دون جدوى.

وحتى تثبت لنفسها أنّها تجيد الإحساس على الأقل، تناولت ديوان شعر، نفضت عنه الغبار، أخذت نَفَساً عميقاً، وعندما أخرجته كان الغبار أكثف من قبل.

بدأت بتقليب الصفحات، لكنّ الكلمات الدافئة لم تستطع أن تذيب سني الصقيع الطويلة، تَفَقّدت قلبها فَوَجَدته ينبض بتواتر عجلة فَقَدَت شهيتها على المسير.

(أريد أن أتأثر).

استمرّت بالقراءة، فاصطدمت العواطف المتدفّقة من القصيدة بعقلها المتوازن إلى أبعد الحدود، فهرولت إلى القصيدة لا تلوي على شيء.

- لا تهربي أريد أن أعقد صلحاً معكِ.

أجابتها القصيدة: ليس قبل أن تتخلّصي من نظرة التحدي تلك.

فتّشت في وجهها عن أجمل ابتسامة، زرعتها على فمها، وراحت هذه المرّة تقرأ بصوت لم تعرفه حنجرتها قبلاً.

(علّ ذلك يساعدني قليلاً).

وبالفعل انطلق طوفان الجُمَل بشكل لم تعد تستطيع أن توقفه، ولأوّل مرّة عَرَفَت أنّ الكلمات قد تصاغ بشكل تغدو فيه معادلات ليس لها علاقة بالمعادلات الكيميائية المملّة، تابعت قراءة القصيدة، لم تكن الجُمَل فقط هي التي ترعبها، لقد كانت كلمة واحدة كافية أن تشعرها بأنّها إنسانة، فالشّمس

في القصيدة لم تعد يعني لها رنين السّاعة المتواصل الذي يوقظها دائماً لتذهب إلى العمل، واكتشفت أنّ اللّيل يملك نجوماً ليس مهمتها تذكيرها بعدد الأعمال التي عليها أن تنجزها في الصباح.

خافت من ضغط الكلمات فأبعدت الكتاب قليلاً، لكنّ المعاني أمطرت في أذنيها، وأورقت في المدى البعيد خيالاً لم تتعرّف ملامحه، احتضنها بلهفة.

قرأت: أنا أحبّكِ.

بحثت عن صاحب الصوت، وفي لحظة يتيمة التقت العيون، وتفاهمت النظرات، هرب الموج إلى عينيه والبحر أصبح أكبر، تحوّلت القصيدة إلى أغنية راحت تتأرجح في حلقه، ولكنّها لم تتبيَّن شخصه.

قرّبت الكتاب إليها أكثر، لكنّ الأغنية مشهورة جداً، وكلماتها ترتدي قناع اللّحن وترفض أن تتجرّد أمام أي تفسير خاص حتى ولو كان خالياً من أي نشاز.

ولأنّ اللحظة التي بدأت يتيمة لم تعد يتيمة، وأعلنت عن لحظات أخرى هي لحظات الرحيل، ضاع الخيال مع آخر سطر من القصيدة، ولكنّه نسيَ شعاع عينيه مُعَلّقاً على أغصان الأشجار الشاردة بين الكتاب وبينها ليبقى يُذَكِّرها بحياة مؤقتة لا تلبث أن تهرب إلى عمق البحر.

اغتيال شباك

عندما قرّرتُ أن لا مجال للهرب من حياتي التي أعشق تفاصيلها، التافه منها قبل المهم، لم أجد سوى العزلة، وهذه ليست عزلة إبداع أو اختراع آلة تُجَفِّف العرق وتمنح البرودة من دون أي أغراض جانبية، بل هي للتركيز في الدراسة.

حملتُ قراري وعرقي المتصبّب وكتبي، وسرنا معاً بصمت إلى مكتبة البلدة التي أعيش فيها، والتي لم أتخيّل نفسي سأهرب إليها في وقت من الأوقات إلّا كسائح مثله مثل بقية السّياح.

وبما أنّ القناعات هي شيء خاص بكل إنسان، فَهَا أنا أُجري بعض التعديلات، أرتدي يومي الاستثنائي وأذهب للمكتبة في السّاعة الرابعة بالتحديد من هذا النهار الهارب من أحضان مدفأة.

وبالمصادفة اخترت الزاوية التي فيها المقعد المقابل للشباك والذي يُطلّ على بنايات عديدة مقابلة له، أقول بالمصادفة وأنا أعرف تماماً أنّ كلّ جزء مني سيهرب ليختبئ في إحدى زوايا الحياة، والحياة هنا في عزلتي الدراسية وفي هذه المكتبة الغاصة بأمثالي هي هذا الشباك اليتيم.

حدّقتُ مليّاً خلاله، المنظر لم يكن مغرياً، لكنّه بنظري أجمل من حدائق بابل المعلّقة، فلكل شيء جمالية تشدني حتى بتُّ أخاف كلّ شيء، ربّما سأتعلّق في يوم من الأيام بوَهْم لا أعرف كيف أسحب نفسي من براثنه، لكن على الأقل سيكون أي شيء غير الروتين.

جلستُ وأجلستُ نظرة الشرود جانبي، لأنّي شعرتُ بنيّتها في القفز ، والوضع هنا لا يسمح بالجري وراءها ، فالمفترض أنّنا ندرس، وبصمت راهب حاولت وبصدق أن أدقق في الكلمات السوداء أمامي، حرّكتُ الورقة لتدبّ فيها الحياة، سقطتْ ببلاهة، نظرتُ حولي وقلبتُ ورقة أخرى، قرأتُ في وجه الطالب أمامي نظرةَ تركيز حاولتْ رصدي وتقييمي، كم

تمنيتُ لو أنّها كانت نظرةً شروداً ولا هدف لها سوى أنّني أنتمي إلى جنسه وأستحقّ منه نظرة ترحيب شاردة، وعندما أَخْفَق في منحي أيّ ألفة كان الخوف البديل المثالي في حالتي تلك.

قلبتُ ورقة أخرى وبقيتُ ساكناً كمن ينتظر حكماً سيصدر عليه وفرجاً سيمنحه إيّاه الشبّاك الموارب، هذا كان يقيني الأكيد، ولحظة حصلتُ عليه وبصعوبة شربته جرعة واحدة وبدأ المرض يغادرني.

ركّزتُ وبثقة أكبر في الشّباك وما يجري خلاله ، لم يكن هناك ما يسترعي الانتباه في رأي هذا الطالب القاضي في مسألتي، لكن مع ذلك أردتُ أن أستفزّه، أن أقول تفضّل وانظر، فالنظر غير ممنوع والشّباك ليس لي وحدي، لكنّه صادَر الفكرة وسجنني في عينيه الضيقتين، فَفَرِحتُ ولم أيأس، لأنّه سيكون لنا أفق رؤية واحدة أو على الأقل سيكون لأفقي صدى داخله، لكنّي شعرتُ بالخيبة مرّات كثيرة:

مرّة عندما عاد مُسْوَدّاً من أثر اصطدامه بمدخنة أحد الأسطح.

ومرّة عندما عاد وهو يحمل سجادة انتشلها من حبل للغسيل، وكأنّه يحسبها من كثرة تحديقي فيها بساط علاء الدين.

ومرّات أخرى أسوأ من سابقاتها لا تحمل سوى الفراغ.

وفي كلّ مرّة يعود فيها يبدأ بكيل الشّتائم للشّباك، ويمنحه حكماً بالإعدام إقفالاً إلى أن وصلتُ إلى حدّ بتُّ أتحمّل فيه الضرب ولا أتحمّل السكوت وقلتُ له:

- كم هو جميل! إنّه يتحرك.

- بفعل الريح يا غبي.

- نعم، لكنّه لو لم يملك تلك الرغبة لما تحرّك قيد أنملة، ثم ماذا عن الأشياء التي تتحرّك خلاله؟ لا تقل إنّك لا تراها.

وبصدق لا أهتمُّ بأيّ تصديق له أو إدراجه في لائحة المقبولات، رأيتُ إحدى البنات تهرول لتأخذ مكانها في الحلقة، وبنفس الصدق الذي لن يحالفه الحظ بالتصديق أيضاً، سمعتُها تحكي عن شاب نسيَ شفتيه على وجه فتاته، وعن شيخ يتذكّر أيامه الخوالي فيبتسم، وعن رئة زرقاء عالية

سوّدتها المداخن ومع ذلك لم تغادر، لأنّ المعروف عن الغيوم أنّها لا تخون.

قلتُ له كل هذه الأشياء التي رأيتها وسمعتها، لم أخفهِ شيئاً رغم الموت الذي راح يتواتر داخله، وقلتُ له أيضاً أنّ الحلقة ما زالت تتسع والكلام لم ينتهِ، وكلّما صمتُّ أسمع المزيد.

- هل جرّبتَ الصمت؟

- أتراني أتكلّم وأزعج من حولي مثلك؟

أحسستُ بالخيبة التي سرعان ما تحوّلت إلى انتصار وأنا أتخيّل الأشياء تهرب منه، وترفض أن تتحلّق حوله بفوضى أو انتظام.

وبدأتُ أتلذّذ بكلمات التشفّي:

(إنّ كلّ ما حولي هو ليس أنا، ولكنّي أستطيع أن أكون كلّ ما حولي، ويكفي أنّي لن أكون مؤلّفاً من ثلاثة حروف أ ـ ن ـ ا)

ويبدو أنّ لعبة التشفّي أعجبتني فاستمرّيت:

(ماذا لو كنتُ خطيباً مُفَوّهاً والتقيته في حشد ما، ألن يكون حينها مضطراً لسماعي حتى لو باع أذنيه؟)

وبالفعل ، الأمنية استعارت لسان الحقيقة وبإرادتي أو من دون إرادتي سمعتني أقول له وبصوت أعلى من الصراخ:

يا صديقي صاحب الحروف الثلاثة، نحن نجلس في مكان واحد وأمام نفس الشبّاك، ولكن هذا لا يعني أنّ نسبة صقل زجاج الشبّاك واحدة في جميع أجزائه، وداعاً.

رفع رأسه قليلاً فغادرتُ مسرعاً، وكم تمنيتُ لو أعود قليلاً لأحدّد أين كان ينظر، وهل يفكّر وبجدّية في اغتيال الشبّاك؟؟

جرح شتوي

عاد وجرحه ممتلئ بالثلج، يبدو أنّ براعمه نسيت صيفها لتثمر في فصل واحد جديد يدعى المواقف المحرجة، وهذا الفصل من صفاته أنّه شديد البرودة، وقد يأتي يوماً أي لا يتقيّد باسم فصل، وهو كأس يشربه الجميع لكن من أشد ضحاياه هذا الشّاب الذي عاد من رحلة في رأسه سبّبت له الصداع، وجَعَلَته أسير ذلك الفصل الملعون ببرودته التي لا تساعد على الالتئام.

حاول أن يسيطر على تلك المواقف المحرجة، لكنّه لم يجد الأجوبة المُفَصّلة لمثل تلك المواقف، وكذلك ضاعت منه الجمل المثقّفة بكلّ قدراتها القامعة لأيّ جدل، بَحَثَ عن عقله، راح يدور حول محور ذاتي غدا الانفلات منه نحو الآخر أبعد من المحال.

وأخيراً، أخذت أعصابه إجازتها غير المتّفق عليها ليبقى الوجه حائراً، لا يعرف رداً على الهجوم غير المُتَوَقّع من الأشخاص أمامه... وإذ بالعقد تقطر رويداً رويداً في رئته، فاعترف لنفسه ومن دون خجل أنّها عقد نفسيّة وليست عضويّة ، وبما أنّه شخص حسّاس للغاية، مَنَع رئته من أيّ زفير يُعَكّر صفو هؤلاء الأشخاص حتى لو كان الهدف تحقيق توازنه بالذات. عاد إلى منزله يحمل تلك الأشياء، ألقاها بجانبه على الفراش، وبدأ جرحه ينزف أفكاراً مقابلة لكلّ ما مرّ معه:

الفرح يقابله الحزن، لا مبرر لحزنك إذن.

الحياة توازي الموت، وأجَلكَ لم يحن بعد.

تَذَكّرَ بعض المواقف المحرجة ذات الفصل الواحد، اشْتَعَلَ الخجل في وجهه حمرة داميّة:

(أنتَ لن تَدَع أحداً يُجَمِّد الدّم في عروقك، وفي النهاية ستعتاد تلك المواقف وستكتسب المناعة المطلوبة).

لجأ إلى قناعاته طفلاً يعود إلى صدر أمّه، فَلَطالما اقتنع بأنّ الحياة مدرسة والدرس لا يكون مُسَلّياً بالطبع:

(لكنّه اليوم كان قاسياً جداً، ومع ذلك لا بدّ أن أكتسب تلك المناعة التي تختبئ في زاوية من زوايا الحياة، ترفض كلّ من يحاول إغواءها، وترضخ لعاشقها فقط).

بَعثَرَ جراحه فوق أوراقه، فقد اقتنع بأنّه لا يحق لأحد أن يمتصّ حزنه.

إلّا هي:

لن أتوقّف عن الكتابة....

سأكتب عن جرح ينزف.

وقد أكتب عن جرح يلتئم.

وربما أكتب عن جرح يُزهر حتى في الشّتاء، ويتحدّى كلّ الثلوج.

المحاولة

عندما قرّر البكاء خاف أن تمحو الدموع معالم وجهه، فلا يبقى له سوى رأس يندب قطع أثاثه، لذلك قرّر أن يحدّد الموضوع الأهم الذي سبّب له كلّ هذا الضيق اليوم، لكنّه وجد حوله سبعة أيّام تمدّ لسانها وترجعه بصورة آلية ودون انقطاع، أحسّ داخله بما يشبه نعيق البوم والسهول التي تستحيل تلالاً.

هزّ رأسه قائلاً: إنْ صَدَقَتْ الأبراج فالبوم يبقى أفضل من الغراب في كلّ شيء.

ابتسم لهذا الخاطر، وعندما تعب من كلّ هذه الحالات النفسية فَتَحَ النافذة، فَرَدَ جناحيه، وراح يُحلّق، اصطدم بطائر ضحك منه قائلاً:

الطيران هدف الذي لا يملك هدفاً أيّها الإنسان.

أدار وجهه، لم يحاول الإجابة، نَظَرَ إلى الأرض، وَجَدَ فتاته التي نَفَتهُ إلى السماء، صرخ في وجهها:

أحبّكِ، وليس ذنبي أنّكِ لا تستحقين هذا الحبّ.

وبالطبع فهي لم تسمعه لأنّ الصدى نام بين طبقات الغيوم، علّق أمله على الرؤية: نعم لعلّها تراني.

لكنّ الرؤية أحياناً لا تملك عيوناً.

وبعد قليل أحسّ ببرودة الجوّ حوله تلامس سخونة جراحه، فبذل أقصى سرعة عنده ليهرب من الاعتدال: سأضع عقلي بين رئتيّ، ولن أكفّ عن حبّها.

استمرّ في الطيران حتى وصل إلى الشّمس، وهنا بدأت أحزانه تغلي في رأسه، وقبل أن يتبخّر رأسه، قرّر أن يتحدى ثقل الأرض:

ليس من المعقول أن أستمرّ في الطيران، الحلّ أن أرفع الأرض، وأقرّبها من السماء.

وفجأةً شعر بدماء ذلك العملاق تتدفق فيه، لكنّه لحظة توقّف عن الطيران وقفز من الأسطورة، كان قد استحال جبلاً أصمَّ، أو ربما تلّةً حمقاءَ، أو أيّ شيء آخر لا يمتّ للإنسان بصِلة.

وإلى الآن لا يزال يُدفع إنسانيته ثمناً للا شيء.

وعادت جميلة

أمسكت جميلة مرآتها وسألتها: يا مرآتي من هي أجمل نساء الأرض؟

تردّدت المرآة وقالت بخجل: لم تعودي أنت.

كسرت المرآة وذهبت إلى الميناء الذي أصبح مكانها المفضّل، وبالتحديد بعد أن بلغت الخامسة والخمسين من عمرها.

كان كلّ ما في الميناء هادئاً إلى حدّ النسيان، فالمياه بالكاد تتحرك كدمائها والنجوم كعيونها يجرّ بعضها بعضاً لتتغلب على النعاس.

حانت منها التفاتة إلى الكرسي الآخر الذي اعتاد رجل يكبرها قليلاً في العمر الجلوس عليه، ولمّا وجدته مكانه اطمأنّت ونسيته، ثم اطمأنّت على السفن وعلى ماء البحر، رفعت رأسها قليلاً إلى أعلى، ووجدت أنّ كل شيء على ما يرام،

فغرقت ثانية في الظلام وفي الخوف من المجهول الذي استفزّ أعصابها، فلم تعد ترى حولها سوى عصابات اللّيل والرجال ذوي العيون الواحدة يمتطون موجة تَجَمّدت في منتصف البحر كالغصّة في الحلق.

تمرّغت في الملوحة قائلة:

ما بالكِ أيّتها الموجات قد هدأتِ؟ أتراكِ احترمتِ هدير رأسي أم تراكِ تجاملينني في هدوء جسمي وضعفي؟ أوَ لا تذكرين سباقاتنا في الماضي؟ وبالفعل لطالما ركبت جميلة عربة الأمواج وأمسكت بزمامها كأميرة منحتها أفروديت كل شيء عدا الاستحمام في نهر الشّباب الأبدي، فلم تتعوّد الجمال فقط بل تعوّدت إطراء الجمال إلى حدّ تناثرت معه قلوب العشاق تحت أقدامها، ممّا أشعل الغيرة في صدور صديقاتها.

وقد قالت إحداهن ذات مرّة: أنت مولودة والتفاحة في يمينك.

فأجابتها بدلع: ولا تنسَيْ القيثارة في يساري.

أمّا الآن فباتت تعذرها وتعذر كلّ الفتيات اللواتي لا يتمتعن بالجمال على غيرتهن من أيّ جميلة.

وطبعاً يجب أن تعذر نفسها أوّلاً؛ لأنّها أصبحت واحدة منهن وعليها أن تشعر على هذا النحو، وفي اللحظة التي راودتها فيها هذه الفكرة أحسّت بطعنة سكّير يعرج على رجله تنغرز في دماغها، فتلوّت ذاكرتها وطغى أنين الصور والخيالات على صوت البحر.

قالت تعاتبه: لطالما كنتُ أوسع منك أيّها البحر الغبيّ المحدود بالأفق، لكنّ المحيّر أنّي لم أعد أملك ربع أفق، ولنقل لا أملك نصف غيمة.

وخافت أن يصل الصوت إلى مسمع الرجل المستغرق في قراءته على ضوء المصباح جانبه، فغطت رأسها ودثرته كأيّ عجوز وهمست: أنا مصنّفة مع العجائز، مع أنّي لستُ عاجزة.

وعلى أثر هذه الكلمات تفاقم غضبها وكأنّها خرجت للتوّ من بطن ثور هائج، وقالت: هل يجب أن أشعر بالذنب لأنّي لا أشعر كعجوز.؟

ولمست شعرها لتتأكد من أنّه مازال يطير مع هبوب النسيم، ثم غسلت عينيها بالماء قائلة:

ما زلتُ أرى بوضوح، وما زلتُ أحبُّ منظر هذا الجبل الذي يبلل أقدامه في البحر.

وأخلدتْ إلى الصّمت برهة، ثم بدأت تدندن أغنية قديمة جذبت الرجل بجانبها فابتسم لها، لكنّها أدارت وجهها ولم تعره انتباهاً وتمتمت وهي تضع يدها على فمها: ما زلتُ أستطيع الغناء.

ثم أمرّت يدها على كامل وجهها وإذ بستار من التجاعيد يفصل بين شبابها وشيخوختها ويحاول أن يقطع كلّ صلة تربط بينهما حتى لو كانت الإنسانيّة، وكمن لدغتها التجاعيد، أبعدت يدها بسرعة، ثم تماسكت قائلة: لا بأس بشرتي بحاجة لبعض الترطيب، هذا كلّ شيء.

وفجأة انتابها الشّعور بالضيق من وجود ذاك الرّجل، ربّما لأنّها أرادت أن تصبّ جام غضبها على هذا البحر اللامبالي، غير أنّها تنفست براحة أكثر عندما ترك الرجل كرسيّه وذهب ليتمشّى بعيداً عنها.

عندها تناولت بعض الأحجار وبدأت تقذفها إلى البحر فأصابته برأسه، ونتيجة هذا العنف غير المتوقّع صاح: مجنونة هل تريدين قتلي؟

قالت: لن يذهب غضبي إلّا إذا شربتك دفعة واحدة وهنا سننتهي معاً.

ضحك باستهزاء: إذن اذهبي واشربي البحر.

وما هي إلّا لحظات حتى شعر بالأسف تجاهها، وقال معتذراً:

- تمنَّيْ أمنية يا صديقتي، أمنية واحدة تنهين مشاكلك بها وتصبحين سعيدة - في السابق كانت سفنكَ تتوجّه ببوصلتي، وسمكك يتقافز بأمري، أوَ لا تذكر؟

- تمنّي أمنية معقولة.

- جمالي جذب الناس للتعرّف عليّ، أما الآن وبعد أن ذهب الجمال فإنّ علمي وثقافتي وسعة اطّلاعي لم تجلب لي شخصاً واحداً، رجلاً أو امرأة للجلوس معي وشرب القهوة أو مشاركتي طعامي.

قال وهو يكزّ على أمواجه ضيقاً: لا تنسَيْ أمنية واحدة معقولة.

قالت بصوت خافت: آه لو يعود.....!!

وصمتت متحاملة على نفسها ثم تردّدت بعض الشيء قبل أن تقول بحزم: ألا ليت الشباب يعود يوماً.

سقطت هذه الكلمات من فمها جاذبة معها المسمار الذي يسدّ شرايينها ليتدحرجا معاً في الماء، وابتعدت على عجل حتى لا يصيبها رذاذ الندم، غير أنّ شعوراً من نوع آخر بدأ يلحّ عليها ويدفعها لمشاركة أحد ما غرابة ما حدث لها.

التفتت حولها وتمنّت أن تجد الرجل جالساً على كرسيّه، ولمّا وجدته آتياً من بعيد، ارتاحت بعض الشيء، ولسبب ما غيّرت رأيها ولم تتكلّم.

ويبدو أنّه هو الآخر كان مشغولاً أو تظاهر بالانشغال بكتابه لأنّه جلس دون أن ينظر إليها، وهنا عاودها الضيق والشعور بالإهمال، ونَفَثت الوحدة في رأسها أفكاراً ساذجة:

ماذا سأتوقّع بعد أن اقترعت الشيخوخة على حياتي، فكان الجمال والشباب نصيبها والألم نصيبي.؟!

وذهبتْ أبعد من ذلك: لو كنتُ صبيّة لهرع للتعرف إليّ أو ليسألني على الأقل ما بك، كم أكرهه.

رسم الكره ابتسامة على شفتيها وقالت ساخرة من نفسها: جيّد فأنا ما زلتُ أستطيع أن أكره.

تابعت: يا إلهي لو تدع الرجال يشيخون وتترك النساء على حالهن.

وبعد أن ملّت دوّامة شحذ العواطف هذه وَثَبَتْ من مكانها واتجهتْ إلى أعلى صخرة في الميناء وقبل أن تلقي بنفسها أمسكها الرجل بقوّة وأدارها قبالته واحتضنها طويلاً، ثم صفعها على وجهها قائلاً:

أتريدين لفت نظري أم تريدين الانتحار؟

صاحت بدهشة وهي تبعده عنها: لا ينقصني إلّا أنتَ!

قال: أما أنتِ (فتنقصينني) حقّاً.

وازدادت دهشتها أكثر لمّا قال: ماذا أفعل من دونكِ؟ أنا آتي كلّ يوم لرؤيتك حتى أصبحت جزءًا مني.

قالت بحسرة: أتيتَ متأخراً، فقد كنتُ روحاً تهيم في أجمل قالب، لقد كنتُ ملكة جمال.

ضَحِكَ قائلاً: ما أدراك؟ ربّما كان جمالكِ آنذاك لا يناسب ذوقي.

قالت: قانون الشيخوخة صارم ولا يسمح للمشاعر بالتدفق، كما أنّي لا أضمن لكَ أن نقضي شهر عسل على هذه الأرض أو في مقبرة، فالأفضل أن نتعامل كعجائز وليس كأنثى ورجل.

قال: لن أتراجع ولو انطلقت خلفي آلاف الهياكل العظمية.

وأخرج من جيبه وردة كان قد خبأها من أمس، وشَكَلَها على شعرها، وبفعل الخجل وحرارة الشمس التي أصبحت الآن في وسط السماء تقريباً بعد ليلة صعبة على الجميع شعّ وجه جميلة بحمرة مخمليّة يشوبها لون برونزي انعكس على رقبتها ليضيئها ببريق يفوق أجمل الحلي الذهبيّة، ولمّا رشقها البحر بأمواجه اكتسب جسدها رشاقة وليونة فقدتهما منذ سنين وبسرعة العمر المسروق من خزانة الزمن، ركبا العربة الذهبيّة التي تقودها أجمل البجعات وأيديهما متشابكة.

نظر إليها وفي الحال غمرها ضوء عينيه، فاستحالت حيرتها ثقة وتحولّت من عجوز إلى صبية ومن ثم إلى جميلة.

يوم استثنائي

أحسَّ بأنّه لم يعد قادرا على النطق، ولكنّه بالتأكيد لمّا يصبح أخرسَ بعد، والأحرف الأبجديّة مازال يتقن تهجئتها، هو طالب الجامعة سابقاً والموظف الحكومي حالياً فارس بن سعيد، بشهادة المجتمع وبشهادة سنوات الدراسة وسنوات العمل، أمّا كونه إنساناً فهذه شهادة يصعب تصديقها من أيّ جهة، والاستفتاء الذي أجريناه على أيامه المعيشة قادنا إلى يوم واحد تتكرّر تفاصيله في دورته الدموية لتمنع تجددها.

لكن اليوم على ما يبدو استثنائي في حياة هذا الفارس، فقد أصبح منذ اللحظة رئيسا لقسمه، وليس هذا فقط سبب سعادته المفاجئة، بل لأنّ سلمى قد وافقت على خطبته بعد قصة حبّ طويلة، والأهم أنّ حالته النفسية ممتازة، فهو لم يخاصم أحداً منذ فترة.

خرج من المنزل صباحاً، وهو يزهو بهذه النعم التي هبطت عليه فجأة، والتي كلّلها بأناقة فائقة في الهندام جعلته يُعجب شخصيّاً بنفسه أكثر من أيّ وقت مضى.

استقلّ حافلة النقل التي لم تكن مزدحمة كثيراً، ممّا أتاح له وعلى غير عادته الاستمتاع بالأغنية المُذاعة وحتى بحديث الشخص الذي أخذ يروي للسائق قصة مُصِرَّاً على جعله يتأثر، لكن من دون جدوى، اللّهم إلّا من بعض هزّات في الرأس جامله بها السائق عند كلّ إشارة مرور.

دخل فارس مطأطئ الرأس إلى الدائرة التي يعمل بها، ولحظة تذكّر أنّه أصبح مديراً رفع رأسه ومشى مزهوّاً.

- ألف مبارك يا سيد فارس.

- شكراً.

- هذا هو مكانك الطبيعي.

انهالت عليه التهاني من كلّ حدب وصوب، جلس على طرف الكرسي، ومع ذلك أحسّ بالتوازن الذي افتقده منذ زمن حتى عندما كان يجلس في منتصف الكرسي مُثَبِّتاً قدميه على الأرض.

قال في نفسه: غريب هذا التوازن الذي أشعر به!، أظنّ أنّ الأضواء الخافتة في المنزل، أو ربما الشّموع ذات الرائحة العطرة قد ساعدتني، وكرسي اليوم ليس له علاقة بحالتي.

لم تمضِ لحظات على هدوء عاصفة التهاني، حتى عادت أقوى من جديد بصوت صديقه سالم الذي عُيّن نائباً له.

ابتسم سالم و قال: مبارك يا صديقي.

أجاب فارس: مبارك لك أيضاً.

قدّم سالم بعض الأوراق، وأشار له بأن يُوَقِّع في الأسفل، ويكتب مع الموافقة.

سالم: لا تفكر، فمخك أصبح ينوء تحت ثقل تلافيفه الدماغية، ارحم نفسك، تمتّع، ومتّعنا بهذه النعمة.

أخذ فارس يُقلّب الأوراق ورقة، ورقة.

الورقة الأولى: عبارة عن صفقة إذا تمّت فسوف تزيد الأغنياء ثراء، والفقراء فقراً.

والورقة الثانية: فيها طلب إجازة لموظّف سيذهب للنزهة مع عائلته إلى أوروبا، في حين هناك العديد من الموظفين الذين يداومون رغم مرضهم الشديد.

والورقة الثالثة: لم يقرأ المصيبة التي فيها، لأنّ خطيبته سلمى كانت على الهاتف تغازله ببذاءة وهي تحدّد مهراً باهظاً.

صرخ فارس بالسّماعة: أريد نظرة حبّ، وليس فقط ثوباً مكشوفاً يا زوجة المستقبل.

وعندما انتبه لنفسه اعتذر من سالم الذي قاطعه قائلاً:

اكتب مع الموافقة، ووقِّع، ودعنا نَنْتَهِ يا فارس.

تمتم فارس فيما بينه: يبدو أنّكم جميعاً تريدون موافقتي، لمَ أحَمِّل نفسي فوق طاقتها؟ هل أنا المسؤول عن الاستغلال وعن الفوارق الطبقية؟ هل أنا من اخترع المرض؟ هل أنا من اخترع غباء الزوجات؟

وقبل أن ينهي توقيع الأوراق أمامه مُذَيِّلاً إيّاها بعبارة مع الرفض، وقبل أن ينهي مخابرته مع خطيبته، كان يومه الاستثنائي قد ولّى من دون رجعة.

اللعبة الأخيرة

منذ الفترة التي غادرت فيها الدقة أبسط مهماتها في تحديد الوقت، وتحولت إلى تحديد معالم كلّ إنسان يجتمع به، منذ تلك الفترة لم يكره أحداً كما كرهَ هؤلاء الثلاثة، وبالأخص شريكه في لعبة الورق التي اجتمعوا من أجلها، كرهه لأنّه عرّى ضعفه بطريقة ساخرة، لو دَاخَلها بعض الشفقة لكان احتفظ بالبقية الباقية من الناس حوله، ولاستطاع أن يقول لنفسه أملك حوالي ثلاثة أصدقاء ممن يسيرون على اثنتين، وأكثر من ذلك ممن يستعملون لسانهم في الكلام، ولو تخلّل كلمات التأنيب الجارحة بعض الحنان لهان الأمر، كأن يقول له شريكه مثلاً:

أنتَ غبيّ في اللعب، لكن الغباء نعمة.

أنتَ لا تصلح لأن تكون شريكي في اللعب، ومع ذلك شراكتنا في الإنسانيّة هي الأبقى.

كان من الممكن أن يتغيّر الموقف، لكنّ الذي حصل أنّ بطلنا راح يناقش بحدّة ليثبت لشريكه أنّه لم يُخطئ في اللعب، على الرغم أنّ خطأه يرتدي عدسة مجهر جعلت الجميع يهزؤون منه.

وللحظات، فكّر بأن يعترف، ويكمل اللعب بل أن يقبل بتوجيهه كلّما أخطأ، لكنّه اعترف مرّات كثيرة في السابق بالجميل الذي صنعه له والده ألم يربه أحسن تربية، وطوال طفولته كان يُشربه عزة النفس والإعجاب بعائلته و.... و...؟

- لا نستطيع أن نخطب لك تلك الفتاة لأنّها ليست من مستوانا، ألا تعرف ابن من أنت؟

وللدقّة ونعود لكلمة الدقّة، فقد اعترف بخطئه أيضاً عندما كان يطالب والده بالنقود ليشتري أدوات تلوين للوحاته، والتي لا تُكلّف الوالد الشيء الكثير، لكنّها تُكَلّف الشاب أن يعيد النظر في كل حياته ليبدأ الموازنة بين ما قيل له في السابق وما يقال الآن، وما سيقال في كل مناسبة، مع أنّ الشّخص الذي يقول هو واحد في كلّ المناسبات:

- ابن من تحسب نفسك حتى تطلب مثل هذه الطلبات؟

وإلى الآن وإلى الوقت الذي تجري فيه لعبة الورق المشؤومة هذه لا يعرف ابن من هو، بل الأدهى من ذلك يرى نفسه مُطالَباً مرّة ثانية بعد الألف بالاعتراف، صحيح أنّ الاعتراف الآن ليس بالجميل بل اعتراف بالخطأ، لكنّ الاعتراف هو الاعتراف.

تجمّع العرق الذي راح يتصبب منه في بركة عميقة، أحسّ برأسه يغرق فيها، عَلَت الأصوات تتهمه:

أنت مجنون أخطأت، وها أنت تعبث بأصول اللعبة من جديد.

هو يعرف أنّه أخطأ في أصول اللعبة، لكنّهم لا يذكّرونه، بل ينتقصون منه، وتمنّى لو يستأذنهم ليسأل والده الحرّيف في اللعبة، لكن لا، لن يسأل والده أي شيء، لا الآن ولا في ما بعد، وعليه أن يعتمد على نفسه، ابتسم لأنّه توصّل للحلّ:

(يجب ألّا أجلس ولا دقيقة بعد أن تنتهي اللعبة، فالوقت ثمين وأمامي الكثير من العمل).

رفع نظارته عن أنفه، عدّل جلسته، وبدا كأنّه يقرأ في كتاب أصول اللعبة، لكنّ صوت شريكه جعله ينسى القراءة والكتابة.

- ما بك تشرد يا فاشل؟ ألا ترى أنّك تخطئ للمرّة العاشرة في اللعب...؟ - لم أُخطئ من وجهة نظري!

- من وجهة نَظَرك؟! لعلّك تخترع قواعد جديدة للعبة.

ثارت ثائرته، وبدأ بالصراخ من جديد، وكأنّه طُعِن في شرفه.

زاد استنكار الثلاثة له، وزادته طقطقات ألسنتهم دقّة، ومن جديد استعمل التدقيق في وجوه مُعَذّبيه الثلاثة، نعم مُعَذّبيه ، فما يُحسّه الآن عذاب مُحتّم وليس تسلية يحصدها أربعة من جرّاء لعبة ورق تتخللها الحياة بكل نكهتها ولعلّه محقّ بأن يفكّر أنّهم وجهوا له دعوة انتحار، وليس دعوة للعبة ورق، ففي البداية الابتسامات المبطّنة، ثم التأنيب الوقح وبعدها المطالبة بالاعتراف، والكارثة الأخيرة اتهامه بالفشل، ومن ثم اتهامه بالاختراع. ولماذا الاختراع أعقب الفشل بهذه الصورة الدقيقة؟ لو لم يكن المقصود أشياء أبعد من لعبة الورق.

(نعم لعلّهم يقصدون أنّي رسّام فاشل أخترع لوحات لا تنتمي للفن بشيء).

أَلَمْ يقل له أحد هؤلاء الثلاثة - وحكّ رأسه ليتوصّل للدقّة المُتَوقّعة منه في مثل هذه الحالة الخطيرة -ألم يقل له ساخراً عندما أتى لزيارته في الأسبوع الماضي وبعد رؤيته اللوحة الأخيرة التي رسمها: لقد عرفتُ من اخترع اللون الأخضر للحشائش والأزرق للسماء؟

وكان مستعداً لأن يسرد له بقية الألوان، لولا أنّه في عجلة من أمره دَفَعَته ليفصح بسرعة عن سبب الزيارة الطارئة، ألا وهي دعوته للعبة الورق هذه التي جَعَلَته يُحسّ بأنّه نجمها الآفل، فَلِمَ لا يقول لهم الآن ما في نفسه دفعة واحدة؟

- اللعنة على أصول اللعبة، نعم أنا أخترع فما رأيكم؟

- رأْينا أن تتابع اللعبة، ولتكن المرّة الأخيرة.

وهنا وضعوه في محنة جديدة: ينهي النقاش، ويكمل اللعبة، ويبدو كَمَنْ اقتنع برأيهم، وهكذا يكسب احتمال أن ينسوا ما بَدَر منه فيبقى عضواً في شلّتهم ليس كلاعب ورق، بل على الأقل كحيوان ناطق لا يستطيع أن يعيش دون أن يتكلّم مع أحد.

أو يثور لكرامته ويعتبر كلامهم إهانة تستوجب الانسحاب، وعندئذ ستكون النهاية لأنّه طَعَن وبخنجر مسموم آخر علاقة اجتماعية قُدِّرت له في هذه الحياة.

توقّع أن يأخذ فترة أطول في التفكير، لكنّ المواقف الصعبة تحمل في طيّاتها أسرع القرارات، لذلك فإنّ حيرته لم تطل:

اللعنة عليكم وعلى أصول اللعبة، أنا أنسحب، ولن أستمر معكم ولو كانت تلك اللعبة الأخيرة.

الحياة المؤقتة

في فترة مؤقتة هي الحياة كلّها بدأ هذا الشاب يفكّر بمنطقيّة مَرَضِيّة إلى حدّ مخيف.

الخطوة الأولى: كانت نحو المجهر.

الخطوة الثانية: هي النتيجة التي تتضمّن الارتداد نحو الذات، أو الانفلات المسعور نحو العالم الخارجي.

أما الخطوة الأولى المجهريّة فقد بدأت وقف فجأة وسط عائلة يعرفها أتمّ المعرفة، وهي بالطبع جزء صغير من المجتمع الذي يحيط به وراح يُشَخِّص الحالة المؤقتة عند كلّ واحد بعد وضعه تحت المجهر.

وكانت البداية مع هذه الفتاة الحلوة التي أحبّت فارساً تملك

غراماياته المؤقتة كل كيانه ، هو ممثّل ناجح إلى حدّ كبير لا عيب فيه سوى أنّ أدواره كلّها متشابهة، فهو يرفض إلّا أن يكون روميو حتى في الأدوار الكوميديّة، ولكن هذا لم يمنعه طبعاً في دوره الأخير أن يعترف بغباء روميو الحقيقي وأن يقول لنفسه:

ماذا لو تناول المغفّل سمّاً مزيّفاً؟ بالتأكيد كانت الورود ستأتيه من الجميع، حتى من جولييت التي لن تلبث أن تغفر له بعد أن تكون قد اقتنعت أو لا بدّ من أن تقتنع بظروف موته المؤقتة.

وبالفعل فقد اقتنعت الفتاة بواقعها وبفشل قصة حبّها مع ذلك الشاب وبذلك قررت الزواج من أي شخص يتقدّم لها.

- سأتزوّج هذا الرجل مؤقتاً حتى أنسى أحزاني.

وهكذا دام زواجها المؤقت ثلاثين عاماً حتى اللحظة الحالية، والآن جاء دور والدها المتوفى الذي تقطن عظامه معها منزلاً واحداً والذي ظلّ يردّد حتى قبل موته بقليل :

أنا لم أُخلَق لهذه الحياة، لا بدّ أنّها مؤقتة.

ومع ذلك فقد ظلّ يعيش كموظّف صغير يتغنّى بالمعمل الضائع في التأميم والذي كانت تملكه عائلته التي تنحدر إلى نسب كبير يعود أصله إلى التشاؤم.

والخلاصة فشجرة العائلة لم تطرح سوى الغرور الذي طالما اصطدم بواقع أولاد جياع فأتخمهم بجملة:

قدّروا ظروفي، فأنا لم أُخلَق لهذه الحياة والتي لا بدّ أن تكون مؤقتة.

واليوم في ذكرى وفاته لا يوجد أحد يندبه أو يتذكره سوى زوجته الوفيّة التي عاشت حياة مؤقتة آمنت فيها بتغيير أوضاع زوجها تغييراً متوقّعاً في كلّ لحظة، فقد كانت تنهي أعمالها، وتسرع بعد ذلك فتتزين بمجوهراتها المُزيّفة وتصرخ بوجه جارتها المعتوهة:

اتبعيني يا وصيفتي.

وها هي تلطم وجهها وتصرخ فوق القبر:

لو تدري ماذا حلّ بنا بعدكَ.

ولو حاول الأب من جهته أن يتحامل على نفسه ولو مرّة واحدة في مماته وأن يجمع عظامه ويهرول معها لأوّل الشّارع فقط لرأى ابنه البكر وهو يعمل بهمّة في محلّ لصنع الإطارات، وقد يسعفه الموت قليلاً فيرى الإطار الجميل الذي صنعه ابنه لشهادته الجامعيّة حتى يحافظ على رونقها وقد يسمع أيضاً ابنه وهو يقول له:

إنّه عمل مؤقت يا أبي ريثما أجد الفرصة المناسبة.

ولكنّ هذه الفرصة المناسبة ما زالت تلعب معي لعبة الفأر والقط حتى الآن وأقول معي؛ لأنّ صاحب الإطارات لم يكن في الحقيقة سوى أنا صاحب المجهر بالذات، والعائلة التي مشيتُ معها الخطوة الأولى إلى ما تحت المجهر هي عائلتي.

أمّا الخطوة الثانية وهي النتيجة، فربما أكون قد تجاهلتها عمْداً؛ لأنّي فقدتُ معها كلّ اتجاه.

سر اختفاء القمر

في تلك الليلة أصرّ القمر على الاختفاء، وكأنّ السواد ضريبةٌ فُرِضَت على الكون، نظر قيس فيما حوله ليرى أنّ أوّل خيط أسود بدأ يتسرب من أعماق نفسه، وضع يده على قلبه ليمنع هذا التسرب.

اغتصب ابتسامة من شفتيه، وفي الحال سقطت منهما بقايا هلال، وهنا أدرك بأنّه لن يرى النور إلّا بقدر ما يراه أيّ أعمى في هذه الخليقة.

وكيف يرى النور وقد اقترف بشفتيه ذنباً لم تجرؤ يداه على اقترافه؟ فبينما كانت شفتاه تقولان لا أريدكِ، كانت يداه تحاولان التمسك بها، وكيانه يأبى إلّا الاتحاد معها.

- أنتِ لستِ ليلاي، وأنا لم أعد قيسكِ.

- أحبّكَ.

كانت هذه الكلمة الأخيرة التي ميّزها من خلال النشيج الذي مزّقهما معاً، ومن يومها لم تعد هناك ليلى تلك الصبية التي أحبّها كصلاة، وابتعد عنها حتى الثمل.

ظنّ نفسه في البعد عنها سيصبح قديساً، لكن ها هو في البُعد يسكر بذكراها يوماً بعد يوم.

- لا تتركني أرجوك.

- أريد أن أُطَهِّر نفسي منكِ.

لطالما قَذَفها بهذه العبارة التي كانت جوابه الوحيد على توسلاتها، ورغم أنّه كان ضمنيّاً يشعر بجبنه، لكنّه لا يستطيع إلّا أن يعتاده، لأنّها كانت سيئة السمعة فيما مضى أي قبل أن تعرفه، ووضعه الاجتماعي لا يسمح له بمجرد تَصَوُّر اقتران اسميهما معاً، مما دفعه إلى أن يقترن بامرأة أخرى تكاد تكون عَلَماً من أعلام المجتمع، تُخَيِّم بمؤهلاتها الفائقة على قارة بأسرها عدا بقعة واحدة هي قلبه الذي لم يستطع إلّا أن يتفيّأ بظلّ ليلى، واليوم وبعد مُضي هذه الأعوام، ما الذي يستطيعه غير أن يُسَخِّر حواسه لتسعفه ببقايا الذكريات؟

أنصتَ جيداً فهزَّته كلمة حبيبي تُرَنِّمها ليلى بصوتها الحنون، وداعبت أنفه رائحتها الآتية من عالم النرجس.

حدّقَ مليّاً فرأى ملائكة طهّرها الحبّ، وعندما فَتَح ذراعيه ليحضنها وَجَدَ زوجته في أحضانه.

ومرّة أخرى تَفَتَّح السواد حوله برعماً شَرِبَ من بئر الحسرات.

الفَراش المحترق

- إنّها مؤامرة، وعندما أعرف الّذين دبروها سأعاقبهم واحداً واحداً ولن أسكت أبداً.

والْتَفَتَتْ إلى المعلّمة التي حلّت محلها:

هل أنتِ سعيدة لأنّك أخذتِ مكاني، وجعلتِ منّي معلّمة احتياطيّة؟ ألا يكفي العمر الاحتياطي الذي قضيته في حياتي الزوجيّة؟

لَكَمَت أذنيَّ همسات وكلمات أخذت تتناقلها أفواه المعلمات:

لقد هجرها زوجها، وتركها لا مُطلّقة ولا مُعَلّقة!

لكمات أذنيّة أخرى:

بسيطة سعاد في تفكيرها، الظاهر أنّ أحداً لم يخبرها بأنّنا في القرن الواحد والعشرين، لباسها متخلّف وكذلك طريقة كلامها، وبما أنّ تعاملها الدائم مع الأطفال قد أغلق المنابع الواعية في عقلها فها هي السّدود تظهر في اعتراضها على قرار

لو صَدَر بحقّ أيّ واحدة منّا لَقَبَّلت السماء. أحسستُ اليد الملعونة التي طالما سبّبت لي المشاكل تدفعني مرَّة أخرى من ظهري لأقول ما يجب ألّا يقال في نظرهم:

لمَ لا تكون القرون الأخرى قد نسيتها حتى تذكّرنا بالطيبة وبالعلاقات البريئة المجرّدة من الغايات؟

التفتُّ إليها، ورأيت جلدها يشفُّ عن شيء قاتم، لعلّه الألم قرّر أن يضحك فبانت أسنانه السوداء، نظراتها تائهة لم يكن هناك ما يوازنها تتأرجح في المحاجر جيئة وذهاباً.

قالت لي شاكية همّها:

ألم يكن هناك بدّ من هذا القرار؟

- لقد صدر وانتهى الأمر، لا تحزني.

- لا أستطيع أن أكون حائطاً.

- حان الوقت لتتعلّمي.

- لكن يا صديقتي بقي لي سنتان في الخدمة، فلماذا يجعلونني معلمة احتياطية؟ لينتظروا هذه المدّة القليلة وبعدها أعدهم بأن أنشر نفسي على حبال الغسيل، وأنتظر الشمس لتجففها.

كيف أترك صفّي ومن سيعلّم الأطفال الهمزة والتاء المربوطة والأعداد؟

قفز حزنها، وتربّع في قلبي، وسمعته يقول:

أنا أسافر معهم في رحلات لم أعرفها منْ قبل، نزرع وروداً، ونسابق الفراشات التي لم تُحلّق أبداً فوق بيتنا؛ لأنّها كانت تحترق بنار الحطب الذي يشعله أبي لنتدفأ به في الشّتاء، لكنْ هل تعرفين لمَ لا تهرب الفراشات بعيداً عن النار؟

قلت: لا

وبعد أن تعبتْ من الكلام، جَلَسَتْ على كرسيّ في الإدارة تنظر من خلال النافذة إلى الطلّاب يدخلون صفوفهم، وتدخل بدورها معهم إلى عالم تتراقص فيه الطباشير فوق ساحة السّبورة على أنغام أغانيهم التي يصدحون بها.

وفي اليوم التالي رأيتُ سعاد تمشي في جنازة نفسها، ثم تجلس صامتة في الإدارة. دقّ الجرس، ودخلت كلّ معلّمة إلى صفّها متأفّفة كالعادة تلعن أباها الذي لم يُخَلّف لها ما يغنيها عن صعوبة التعليم، وتَحَمُّل طلبات المديرة، وأوامر الموجّهة التربويّة العانس.

وانشغلتُ عن مراقبة سعاد ببعض شؤوني كأمينة سر، وعندما خرجتُ من غرفتي رأيتها تنتقل من صفّ لآخر، وتنظر من زاوية الباب الموارب إلى الطلّاب، تباطأتُ عن قصد، وتجاهلتها حتى لا تشعر بالحرج.

ومنذ ذلك اليوم، وأنا أحسّ بالذنب تجاهها كما لو أنّني أنا التي دقّت آخر مسمار في مشنقتها، وهذا الشعور لم يكن غريباً عليّ، فقد عانيتُ منه من صغري، وكلّما رأيتني عاجزة عن تغيير أيّ خطأ في أيّ مشكلة تصيب الناس حولي، ولطالما حاولوا إقناعي بأنّني قشة في وجه الإعصار ولست الإعصار؛ ولكن من يستطيع أن يقنع شابة آمنت بأنّ عقل الإنسان قادر على إخضاع الطبيعة حتى لو تورّم خدّه؟

نعم، أعدهم أنّني لن أتعوّد الصّمت حتى لو تآمر لساني عليّ، وخُتِم حلقي بالشمع الأحمر، لكنّني وللأسف مضطرة أن أتعوّد على رؤية سعاد تجلس على كرسيّ في الإدارة، تؤشر للطلّاب ببعض ما بقي لها من أصابع لم تعضّها ندماً؛ لأنّها لم تلتهم رحم أمّها وتموت بالتخمة، وهي تتساءل إن كانت إنسانة تعيش الحياة أم ممحاة صفراء تعيش على صفحة قرار مكتوب بالحبر السري؟

وهكذا استمرّت الأيام، ولم تعرف سعاد الجواب، تماماً مثلما كنتُ أنا لا أعرف لماذا تقترب الفراشات من النار رغم إحساسها بأنّها ميّتة لا محالة؟ ولكنّي بعد رؤيتي لسعاد تجلس كلّ يوم في الإدارة، تراقب التلاميذ عن بعد، وتبتسم، لم أعد أسأل أبداً عن سرّ الفراش المحترق.

هنا وهناك

في الموعد المحدّد تماما، كان ماهر يطرق باب صديقه وسيم الذي يعيش وحيداً بعد أن ترك أهله في الضيعة، وأتى إلى المدينة للدّراسة والحصول على شهادة جامعيّة بالمنطق وعلم النفس.

خمس طرقات، ستّ، ولم يُفتح الباب، كرّر المحاولة، والباب لا يريد أن يبوح بما يُخَبّئ.

في اليوم الثاني فعل ماهر الشيء نفسه، وهكذا على مدى أسبوع ثم شهر وفي النهاية فَقَدَ الأمل في معرفة مكان صديقه الذي لم يداوم على الجامعة ولا هو موجود في منزله.

بدأت الأحاديث تكثر بين الطلّاب حول وسيم الذي لم يغب يوما واحداً من قبل، فما باله ينقطع عن الدوام وهو في سنة التخرّج، وصاحَبَ الأحاديثَ كثيرٌ من الغمز واللمز

حول علاقته بريم إحدى أذكى الطالبات في إيقاع الشباب بحبائلها وأغباهنّ دراسيّاً.

وريم الجميلة هذه كانت ريم أهلها المدلّلة والغزالة التي لا يُرفض لها طلب تأتي إلى الجامعة بسيّارة فارهة يقودها سائق متهندم، ونادراً ما يراها أصدقاؤها تلبس الثوب نفسه مرتين.

وبالمقابل، فقد أنعم الله على وسيم بالاجتهاد والتفوّق الدراسيّ وبأجمل عينين سوداوين، يمكن أن يتحلّى بهما رجل في العالم صفاء ونقاء وجاذبية، ولهذا وللحنان الذي كان يتدفق من كلامه وتصرفاته الرجوليّة، فقد أَحَبَّته كلّ الفتيات بلا منازع، وصارحنه بحبهن، لكن هذا كله لم يُفقد وسيماً عقله واتزانه، بل ظلَّ كما هو، إلّا أنّه لم يسلم من الغدر فالطيّبون غالباً ما يعترضهم الخبثاء، وماذا إذا كانت تلك الخبيثة ريم؟ التي بدأت تحاول معه بعد أن راهنت أصدقاءها على إيقاعه في شباكها وإذلاله؛ لأنّه أهملها ولم ينتبه إليها، ولم يقع في غرامها منذ اللّحظة الأولى كما تَعَوّدت.

أمّا لماذا لم تنتهِ اللعبة في الوقت المتّفق عليه؟

وهل وقعت ريم في غرامه؟ وأين اختفت هي ووسيم فجأة؟

كلّ هذه الأسئلة لم تلقَ لها جواباً يشفي الفضول، فقد قيل إنّها أُغرمت به وهو أيضا، وقيل إنهما افترقا، هي سافرت خارج البلاد، وهو غادر إلى ضيعته، وقيل وقيل حتى احتارت الحقيقة في أمرهما.

وفي الواقع أو ربما في الخيال كان الاثنان يعيشان أجمل قصة حبّ، فريم لم تعد ترى من الوجوه حولها سوى وجهه الأسمر، ولم تعد تقوى على الانجذاب إلّا لتينك العينين السوداويين، وبالتالي فقد غمرها وسيم بحبّ أجَّلَه طويلاً، وخبّأه لمن تستطيع أن تُقدّم له المستقبل على طبق ذهبي من الحاضر، وهو إلى الآن ولهذه اللحظة لم يتعوّد فِكْرَة أنها معه، أو بالأحرى لم يُصَدِّق إلاّ بعد أن يلمس شعرها بيديه عندما تكون نائمة بجانبه كملاك. وها هو يخاطب نفسه: ملاك؟ نعم لقد حوّلها الحب إلى ملاك لا يعرف الكذب.

وبينما هو يتأملها إذ بها تفتح عينيها، وتبتسم له فيقول:

هذا الأجمل بين صباحات الدنيا كلها.

تجيبه ريم: لأنك معي.

وفي إحدى الأمسيات اقترح وسيم عليها الذهاب في رحلة إلى الجبل:

غداً يوم إجازتي، ما رأيكِ أن نسافر بالقطار يا حبيبتي البورجوازية؟ صدّقيني، إنه أمتع من الطائرة.

وفي صباح اليوم الثاني راح القطار يشق طريقه وسط أشجار الغابة الكثيفة بمحاذاة البحيرات التي تناثرت على الأطراف، ووسيم جالس في مكانه يضع يداً على كتف ريم، وباليد الأخرى يلقي بالأسئلة إلى أبعد مدى تصل إليه في المياه الزرقاء لترسم دائرة تلو الأخرى، وهو يتمتم:

هل تحبّني بقدر ما أحبها؟ هل يمكن أن أحبّ شيئا آخر في الوجود أكثر منها؟

وفجأة التفتت إليه ريم، ومن دون مقدمات قالت:

نعم أحبّكَ أكثر من أموال والدي وشركاته وسياراته، وأنا مجنونة بهذه الغمازة على خدّك الأيمن.

ضحك الاثنان لردة فعلها غير المُتَوَقّعة.

قال وسيم: كنتُ أحلم طوال عمري أن أسافر بالقطار مع من أُحبّ، ولم يكن المكان الذي أقصده مهمّاً بالنسبة لي، بل الطريق.

تابع القطار مسيرته مُتَوقفاً في المحطات المخصصة للاستراحة، وقام وسيم بحفر اسمه واسم ريم على كل شجرة في كل محطة؛ لأنه طالما اعتقد أنّ الأشجار تتكلم في المساءات المقمرة رغم التكتم والوقار والابتسامة الخشبية، وتبوح بقصص الحب.

لكن الأقدار التي تتربص عادة بهذه القصص لم تترك وسيماً وريماً كليهما لشأنهما، بل وقفت لهما بالمرصاد رافعة سبابتها في وجههما:

الحياة ليست فقط أنتَ وهي بمعزل عن العالم، هناك حياة عملية وواقع مُعاش وعلاقات اجتماعية ومسؤوليات قد تُفقد العسل طعمه، ورغم أنّ ريماً حاولت جاهدة أن تتمسّك بوسيم وأن تُغيّر أسلوب حياتها لأجله، إلاّ أنها لم تنجح، ورغم أن وسيماً حاول أن يصل الليل بالنهار في العمل ليزيد دخله ويُقدّم لها ولو جزءاً من الحياة المرفهة التي اعتادت عليها ، إلاّ أنّه فشل.

وحدث ذات مرّة أن دُعيا لحضور زفاف أحد أقاربها، فطلبت منه دون قصد وعن نيّة طيبة أن يتصرف كذا وكذا، وأن يتفوّه بعبارات مجاملة معيّنة وأن يمشي، ويصافح بهذه الطريقة وليس بتلك، وقد حاول جاهداً لكنه فشل أيضا، كما فشل في أحيان كثيرة قامت فيها عائلتها بزيارتهما في منزلهما المتواضع، فما الحل إذن؟

هل يضبط أفكاره على تردد واحد هو وريم أم يُغيّر أفكاره ويقوم بتركها؟ شرط أن تتوفر لديه الرغبة الحقيقية للابتعاد، وذلك حسب قانون الجذب الذي يقول: «عندما ترغب في جذب شيء ما إلى حياتك تأكد من أنّ أفعالك لا تُناقض رغباتك».

وبما أنه ضمنياً لا يريد تركها، إذن فلْيتلقَّ سعادة العذاب هذه وليتحمّل كل هذه الضغوط:

لقد تشوّش عقله إلى درجة بات معها يبدأ نهاره بفكرة واحدة (سأموت إذا تركتها)، وينتهي بالمزيد والمزيد من الأفكار السلبية، وتداخلت المعلومات التي درسها برأسه مع

الحالات المختلفة للمرضى في عيادة أستاذه الطبيب النفسي المشهور، الذي يعمل متدرّباً لديه، وعبثاً حاول أن يُخفي حالته هذه عن أستاذه الذي بدوره فَضَّل ألاّ يتدخل، إلاّ أنه مؤخّراً وعندما ساءت حالة وسيم جداً قال له:

يا بنيَ أنت تعرف ما سأقوله لكَ سلفاً، امتلك زمام عقلك حتى تستطيع أن تضع كل الأشياء في نصابها الصحيح.

أجابه وسيم بتوتر: أنا أحاول أن أكرهها.

ردّ عليه الأستاذ: لا تُقاوم حبّها حتى لا تُضَخّمه وتتشبث به، لأنك كلما قاومت شيئاً زادت سطوته عليك.

هزّ رأسه واعداً إيّاه بأن يُحاول، ثم قام من فوره ليمشي على غير هدى وبعد قليل توقّف أمام منزل صديقه ماهر الذي طال غيابه عنه، تمنّى لو يجلس معه، ويشرح له قصته ويظل يتكلّم ويتكلّم حتى الصباح، حينئذ كان سيرتاح حتما، ولكن كيف ستكون حالته عندما يعود إلى منزله، ويبقى وحيدا؟ لاشك أن هذا الحديث سيؤجّج ذكرياته وأحزانه وسيصنع داخله عشرات التماثيل لريم حتى لو افترضنا جدلاً بأنه تكلّم بالسوء

عنها ليشفي غليله، ممّا جعله يَعْدِل عن زيارة ماهر، وهو يلعن في سره المنطق (آه منه إنه سلاح ذو حدين).

وهكذا لم يتبق لوسيم سوى أن يساعد نفسه، وقد فعل، فكيف؟!

غَيَّرَ تفكيره: أَوَ تُعجبكَ حالتك هذه؟ ألستَ أنتَ الذي يُشجّع الناس ويعالجهم؟ هيّا اتخذ قرارك بأن تُهَدّئ عقلك.

وبعد قليل:

(أُحبُّها أجلّ؛ ولكن لا أستطيع العيش معها، فلنفترق)

على هذا النحو فكّر، ومن ثم نَفّذ، وأخيراً توصّل إلى الاستقرار، وإلى شكل الحياة التي يرغب بها، وأصبح بمقدوره أن يرسم مستقبله من جديد وأن يُمارس حياته الحالية التي ابتعد عنها لفترة غير قصيرة دفعت أصدقاءه إلى فقدان الأمل في إيجاده، ولمّا ظهر أخيرا في الجامعة وبشكل مفاجئ، ذُهل رفاقه، وبدأت الأسئلة تنهمر عليه:

أين كنت؟ لماذا اختفيت فجأة؟ هل استمرت قصة حبكما، وهل توّجت بالزواج؟ أين هي ريم؟

وبدا كأنّ أجوبة وسيم ستتعثر إلى الأبد وسط زحمة أسئلتهم، غير أنّه استطاع بعد عناء أن يتكلَم:

أؤكد لكم أننا لم نتورط في قصة حبّ رغم الإعجاب المتبادل بيننا، وأنا لم أرها أبداً منذ أن انقطعت عن الدوام من أجل التحضير للفحص.

سأله أحدهم: إذن لا مواعيد ولا لقاءات ولا مجنون ريم ولا زواج؟

وسيم: نعم، أقسم لكم.

حدّق الجميع بماهر، واستحلفوه بأن يقنع وسيماً بقول الحقيقة.

أجابهم ماهر: صديقي لا يكذب.

تساءلوا بدهشة: أين هي ريم إذن؟ لا بدّ أنها كانت صادقة عندما ودّعتنا قائلة إنّها ستذهب مع أهلها في رحلة خارج البلاد.

وبعد مضيّ فترة من الوقت، وكما أنّ لكل شهيق زفيراً، هدأت أسئلتهم وتَنَفَسَتْ الصعداء.

وما لبث أن انفضّ الحضور وبقي الصديقان وحدهما حتى فاجأ وسيم ماهراً بقوله:

كل ما ذكروه صحيحاً.

قال ماهر: كيف والمعروف عنك أنَك لا تكذب؟

وسيم: نعم، أنا لم أكذب، فقد عشت كل هذا بعقلي، وبرئتُ منه بعقلي أيضاً.

ماهر: لم أفهم.

وسيم: ألم ندرس أننا عندما نتخَيَل فإنّ عقلنا لا يمكن أن يُميّز ما إذا كان يقوم بذلك حقّاً أم أنه مجرد تدريب؟

أي إذا ذهبتَ إلى مكان بعقلك سوف تكون هناك بجسمك.

هزّ ماهر رأسه: أجل هذا صحيح.

تابع وسيم ضاحكاً:

وعندئذ، وبالتأكيد لن يدري أحد هل أنت هنا يا صديقي أم هناك؟

التحنيط حيّاً

بعد عمرٍ لستُ أذكر كميته؛ لأني لم أعد أعيش إلاّ الكمّ والثقل، جئتُ أعتذر للورق، لأنّ تفاهتي لا يحقّ لها أن تُعَكِّر تلك البراءة البيضاء، ولماذا لا يحقّ لها؟ لأني كلما أردتُ أن أصنع عاصفة ينتابني الهدوء وهدوء الأعصاب ليس مكانه الورق وليس القلم من أدواته.

أنا اليوم موظّف إداري، ومع ذلك أشتاق إلى قلمي، فقد اعتقدتُ أنّي انتصرتُ عندما كسرته واستعملت أقلامهم لأبدأ الحياة العملية، وها أنا مريض نفسيّ من دونه وكلّ مهدئات الدنيا لا تنفعني....

أذهب كلّ يوم إلى الدوام منذ سنة ضوئية إلى أن استيقظتُ يوماً ووجدتني لا أقرأ ولا أكتب، أعمل فقط، وأصنّف الناس ضمن ملفات، وأفشل في تكنيس الغبار داخلي. تبّاً للحياة

العملية إذا كانت مع خمسة محنّطين! لا أدري كم يدفعون ثمن أكياس الدم التي تمدّهم بالطاقة خلال ثماني ساعات للتحرك بالقدر الكافي لتمييزهم عن الدمى، والتي قد تبادلك الابتسامة، وتردّ تحيّتك أحياناً، بينما هم لا يبتسمون لك حتى لو دفعتَ لهم نصف راتبك، والأكثر من ذلك أنهم حقدوا عليّ منذ اليوم الأوّل للدوام، بحثتُ عن الأسباب، وعندما لم أجد أي مبرر استدنتُ مبلغاً من المال، واشتريتُ شجرة النسب لعائلة كل واحد منهم، قلتُ في نفسي: ربما يكون جدّي الأوّل قد أخطأ بحقّ جدّهم، أو لعلّه خطف منه زوجته وأغواها.

وذهبتُ إلى أبعد من ذلك: قد يكون ضَربها وعَذّبها قبل أن يهجرها، وأولادها اليوم ينتقمون منّي؛ لكن وإن يكن فما ذنبي أنا؟!

وسألتُ المحايد الوحيد في الغرفة وإن كانوا لا يقيمون له وزناً؛ لأنه لا يفهم نكاتهم ونظراتهم الملغومة، يصلي باستمرار، ينهي عمله ويأكل كثيراً عندما يجوع، لكنه في النهاية إنسان، وقد أجابني بأني الأذكى، وهم يخافون التفوّق.

لم أقتنع كثيراً، وأحسست بعد فترة أني قماش زائد ومقصهم لا يرحم، بدأتُ أستعير ألوانهم، وعندما أعود للبيت أراني حائل اللون.

قلتُ لهم: أستطيع أن أكون موظّفاً وإنساناً في الوقت نفسه.

وعندما وجدتُ أنّه لا مبرر للأمل -فهم يحتقرونه، ولا شيء يُقَرّبني منهم سوى التعاسة- بدأت أخترع قصصاً حزينة ولفرط ما رويتها صدّقتها: أوّل البارحة ماتت جارتنا حزناً بعد أن قُتل أولادها الثلاثة بحادث، وصباح البارحة اعتدى ثلاثة شبّان على فتاة عمياء تسكن قربنا، وفي المساء احترقت البناية المجاورة، واليوم سأتوفّى أنا إن استمريت على هذا الشكل، فأنا أفتقد أوراقي ومقعداً.

نعم، أحسّ أنّي لم أجلس طوال عمري، فقط أتعامل معهم وآكل وأنام وأنا واقف، يا إلهي! أوَليس من المقبول أن يحلم الإنسان بالجلوس؟

- عليكَ أن تستنشق الهواء المحيط بمكتبك فقط.

- يجب أن تنتقل ضمن الدائرة الأرضيّة المخصصة لكَ، وإيّاك أن تتعداها.

لكن كيف؟ وأنا مضطر للمرور أمامهم أثناء دخولي وخروجي من الغرفة، فالباب لا يمكن تجزئته، ولم يتمّ بعد اختراع نافذة ذات درج!

إلى أن باتت عملتي الوحيدة في التعامل معهم أعصابي، والغريب أنّي طالما اقتنعت بأنّ الإنسان يرسم الشخصية التي يريدها في عيون الآخرين ولكن أن يرسم التحنيط ويسأل الناس التعامل معه، فهذا أكثر من اللا معقول، وليس من جواب سوى أنّي رفضت، وما زلت أرفض.

التحنيط حيّاً.......

الجدران النائمة

- أحبّكِ

لم تستطع الصراخ، نَسِيَتها الكلمات، وراحت تتعلم النطق من جديد.

عندما افترقا أشعلت الذكرى نهارات لا تنطفئ أذابت الصقيع، واخترقت جدار القلب الهرم، تفتّحت الوردة التي زَرَعَتْها في كتاب، اصفرّت السطور السوداء، ماتت، دفنت الكتاب في جيبها وأحسّت نفسها مولودة في أرجوحة دائمة الاهتزاز تسبب لها الكثير من الإحراج.

صارحها بحبّه مرّة أخرى، فسحبت نَفَساً عميقاً وبصعوبة أجابته:

- لستُ أدري ماذا أقول؟ الخوف يكتسي لحماً ويرتدي فرحاً، ويسير بحبّ على ذلك الجسر العالي.

- أريد جواباً.

لأوّل مرّة تمنّتْ أن تملك عشرات التجارب لتجيبه من خلالها، كَفَرَت بكلّ شرائع الطفولة، لعنتْ الخوف الذي جعلها نجمة تسهر طوال الليل تحلم بنور اليوم الجديد، وحين تلمحه تهرب في الأفق.

(آه يا سن الأربعين، كم أنتَ بعيد عن أعوامي الإحدى والعشرين).

لَعَنَتْ الحياة مراراً وتكراراً: (هي تملك آلاف المجاهر، وتمنحنا وجهاً بعينين يتيمتين لا نرى بهما سوى الحيرة).

- أحبّكِ.

(لو أنّ الحياة ليست هي التي أعرف ويعرف كنتُ عاهدته على الحبّ من اللحظة الأولى، ولكننا على هذه الأرض التي تدور ويدور معها الكذب والظلم.

الحيرة، فلتكن! ولكنّها لن تفضح نفسها، وتسأل أحداً من تلك الساعات المتحركة على جدران نائمة -بحق الهواء الذي تستنشقه معهم- أن يساعدوها، لأنّها تعرف رأيهم وردود فعلهم سلفاً.

قررت أن تنتظر، وتأخذ وقتها في التفكير، لكنّها خافت أن تُفَكِّر على طريقة عالم الساعات.

عادت للحديث مع نفسها: هو لم يهزأ من الحلم القديم؛ ولكن أتراه هرب من عالمهم فترة يعود ليعتذر بعدها عن دقائقه الهاربة؟

قال وكأنه قرأ أفكارها:

صدّقيني، أنا لا أعرف الكذب.

تساقطت الجدران المتهرئة على وقع كلماته الصادقة، أمسكت بيدها ريشة طَلَتْ السقف والأرض بلون شفاف، سَرَقتْ الحبال قبل أن تبتلعها الجدران المتساقطة، صرخت

بأعلى صوتها: الحبال المسكينة تصلح للأراجيح بدل المشانق، عملت أرجوحة، علّقتها في السقف، ضربت بأرجلها الأرض، وقبل أن تطير كانت آلاف الجدران النائمة قد استيقظت.

حورية عمار

احتدّ عمار للمرة العاشرة هذا اليوم، وقبل أن يغلق باب الغرفة صرخ في وجه زوجته وأولاده: سأذهب إلى النوم، ولا أريد أن يزعجني أحد، وإن لم أستيقظ فدعوني نائماً لعشر سنين.

وكما في كلّ الليالي السابقة لم يغمض له جفن، لأن القرار الأهم الذي اتّخذه بملء نومه وصحوته كان يؤرقه، وكانت حورية تحفر في رأسه دهاليز ما إن يغلقها حتى تطلّ من عينيه.

- أحبّكَ.

- لكنني متزوّج.

- تزوجني، لستَ أوّل شخص يتزوّج من اثنتين.

وسواء أكان عمار محبطاً إلى هذا الحدّ بحيث لاقت محاولات حورية في إذابة جليده صدى عنده، أم أن الأمر وقع كما لو أن ثمة قوة كونيّة تدفعه للحب، فإن ما كان يطفو في الجوّ وما يعكسه ضوء الفجر لم، ولن يُنسى أبداً.

وبعد دهر من الصمت سألها عمار: أين سيكون العرس؟

- تحت أجمل سماء وفوق أعذب بحر لم تحظ بمثله أية يابسة على هذه الكرة الأرضية.

- ما اسمكِ؟

- أنتَ تعرف.

- أريد أن أتأكد.

- فليكن، أنا حورية ومنذ اليوم أنا حوريتكَ.

طارت فراشات مُلَوّنة من سترة عمار، أزهارٌ أزهار سقطت في قلبه لتشكّل سريراً تنام فيه حورية، صمتَ عقله وصدحت موسيقا عينيه بجمال حورية.

تزوّج عمار من حورية، وكان العرس مهرجاناً حقيقيّاً افتقدته الدنيا منذ زمن، اشتركت المواسم الأربعة لإحياء عروق نشفت في جسم عمار. لسعته البرودة، فأمطرت في قلبه وأورقت في وجدانه وأثمرت في عواطفه حبّاً جارفاً لا يعرفه غير من كان قد قضى حكماً لمدّة خمس عشرة سنة في زواج سابق.

رقصت أمواج البحر كما لم تفعل من قبل، وأضاءت النجوم سماء العروسين بدل القمر الذي توارى تلك الليلة خجلاً من جمال حورية. استعار حزيران من تشرين أعذب نسمة هبّت على وجه العروس فتناثر شعرها وتناثر قلب عمّار معه، استند العروسان على جذع شجرة، فباحت لهما بأسرارها.

ابتسم عمار، غمز حورية وسألها: لمن هذا الكوخ الزجاجي الغافي في حضن الوادي؟

- هيا يا حبيبي إنه منزلنا.

دخل العروسان فجراً قطعة الجنة هذه، بدأ صوت المياه يداعب آذانهما ومنظر السواقي الهطّالة من قمة الجبل يغسل

نعاس السنين من عيونهما. عندما أنارت حورية الشموع رآها، وتمنى كلّ عمّار في الدنيا أن تكون حورية زوجته.

- لماذا أضأتِ الشموع؟

- أريد أن أرى عينيكَ.

لمعت عينا عمار بلهفة العاشق: هل أستطيع أن أرمش بعيني وأراكِ باللحظة نفسها؟

- نعم، من خلال ذاكرتكَ.

وكما في قديم الزمان وجديدهِ حيث كل شيء يكرر كل شيء، ولا يشعر الإنسان بالزمن لولا كبره وموته، بدأ عمار يتكلم بقوة العشق وهمسه، وكان النظر إلى عينيها فَرَحاً.

أمسكت يده بحنان، وعندما احتضنها أبعدته عنها وهمست قائلة:

- والآن يا أميري، هل تسمح لي أن أقول شيئاً؟

- دعي صوتكِ يمشي في دمي.

ومن دون أن تحتار حتى، أو أن تبدأ بترتيب أسئلتها:

- أين هدية العروس؟ أين مائدة صباح العرس؟ إنها تقليد مهم لا يجوز الاستغناء عنه.

لماذا تشيح بوجهكَ عني؟

- لا أستطيع أن أنظر إليكِ وأفهم ما تقولين بآن واحد.

تابعت حورية: لا يهم، دعنا نتفق من سيحضر الخضار والخبز واللحم من السوق؟ كم ولداً سننجب؟ ومن سيعتني بالأولاد؟ فأنا سأسبح لمدّة ست ساعات يوميّاً، لأنني حورية، ولا أستطيع أن أكون مجرد امرأة عاديّة غبيّة، أين...؟ ومتى...؟ ولماذا...؟

صرخ عمار: لا لا لا أريد.

فتح عينيه بصعوبة، كان وجهه شاحباً شحوب من غاب عن هذه الحياة قرناً، ثم عاد بلحظة. وبمقدار ما كانت يده تزيح الأحجار، وتمسح العرق المتصبّب من جبينه، كانت هناك صخور تتساقط مُشَكِّلَة انهياراً حقيقيّاً فوق صدره.

أطبق جفنيه، لكنّ حورية استمرّت بالكلام من خلال ذاكرته، هرع مُسرعاً وارتمى في أحضان زوجته وأولاده.

ووسط دهشة الجميع صرخ، وعاود الصراخ بكل قوته:

لا لا.. لا أريد أيّ حورية بعد الآن.

قتيل من نوع ثالث

شعر أنه بحاجة لمن يقول له: إنه مهم، أو تقريباً في وسط الصفحة، أو بعد الهامش ولو بقليل.

ولم يكن شعوره هذا مفاجئاً، لأنه في المدّة الأخيرة راح يشهد مقتل عوالمه الداخلية ألف مرّة في اليوم.

هو لا يقرأ أبراجاً...

لا يخلق صدفة ويصدقها...

لا يذهب للطبيب إلّا لاستئصال ورم خبيث انتقل إليه بعد محادثة فلان أو مناقشة فلانة.

قال في نفسه: الاستماع لبعض الناس أخطر من الإيدز بحد ذاته، لكنّ الموت في الحالة الأولى أجلّ وأسمى، ومراسمه أكثر وقاراً من الحالة الثانية.

ولا شك أنه يملك كل الحق في تقييمه هذا، ففي الواقع يستطيع أي إنسان استيقظ من نومه أو صحوه وسحب عقله من الفراش إلى الرأس أن يدركه وبسهولة، فشهيد الشهوة عادة لا يحصل على خط أسود يزيّن صورته، هذا إذا لم يحصل فور دفنه على فتوى غير عادية تقتضي حفر علامة ضرب سوداء على جميع صوره وصور أسرته، حتى إن كان بعضهم قد تخرّج من كلية الشريعة بتفوّق.

وهنا عند هذه النقطة بالذات توقّف؛ لأن رأسه تعب من المشي في حارات التفكير.

(أظنُّ أنّ رأسي قد قرّر الانتهاء من هذه النزهة بأقصى سرعة).

وبالفعل هذا ما كان قد قرره رأسه المتعب من مشاكل كل يوم، واليوم بالتحديد؛ لأنه لم يكن عادياً أو هكذا تصوّر، هو الإنسان المُغْرَق في التفاصيل إلى حد يستدعي وجوب

التصاق شخص آخر به ليستعير عقله في بعض الأحيان وعينيه ويديه في أحيان أخرى.

(ماذا لو كان لي توءم يقرضني ما أشاء من دون أن يتعامل معي بالربا؟) ونعود معه إلى هذا اليوم غير العادي، والذي قد يكون تأثيره أخفّ من لسعة بعوضة عند بعض الناس، أما عنده فهي تعادل لطمه خرطوم فيل، لكن لِمَ الفيل بالذات؟! ربما، لأنَّ ضخامته تُخَفِّف قليلاً من ثقل المعاناة، فتبدو كل الأشياء ضئيلة بجانب هذه الضخامة.

قال في نفسه: ما حدث اليوم هو ابن البارحة ووالد الغد.

ولكن هذه الجملة لا تعني أنّه سيدخلنا في تفصيلات يومه هذا؛ لأنّ تلك الخطوط التفصيليّة حفرت أخاديدها المبلّلة بالدموع في عمق نفسه.

ولعلّه كان مُحقّاً في هذا كلّ الحقّ؛ لأنّه عندما نشر نفسه لمن حوله وانتظر شمسهم بفارغ الصبر أشرقت تراباً ولا شيء غير

التراب، ومن يومها فَقَدَ كلّ تفصيلاته، وحَلَفَ أن يسرق من التمساح جلده حتى لو التهمه هذا الأخير؛ لأنّه على الأقل سيذهب ضحية جنس آخر غير الجنس البشري، ولن يكون قتيل المناقشات أو قتيل الفتيات، بل سيكون قتيلاً من نوع ثالث.

أعلنتُ عليكم الدوران

اليوم ولسبب لن تستطيع أن تخفيه، أَعْلَنَتْ علينا الدوران، فمن الواضح أنّها تريد فضح أسرارنا:

لذلك اختارت أكبر طاولة كانت سعاد تتحصَّن بها، وتخفي حياتها بين أدراجها الكثيرة لتبقى صامتة أبداً، وراسمةً ضحكة مالحة تستلقي على فمها، ومن ثم راحت تعصف بها فتطايرت الأوراق من فوقها، وتفاجأنا بسعاد تقول:

أنا مطلّقة، طَلّقني بعد زواجنا بسنة لأن والدته لم تحبني، وها أنا أعمل لأعيل نفسي وولدي بهذا المعاش الشحيح.

دارت حول سعاد من دون أن تتكلم، وبسرعة وفي محاولة لمجاراتها سحبت سعاد مع خيط الصوف الذي كانت تحيك به سترة صوفية أملاً أخذ يدور في فلك تلك المجنونة، وندور جميعنا معه، لقد جعلتنا نشبهها تماماً فجميعنا نملك وجهاً

واحداً بأنفاس مُتَقَطِّعة، حَوَّلته السرعة لإنسان فَقَدَ التوازن مذ جلس على هذا الكرسي، ونال لقب موظّف.

ولم نكد نلتقط أنفاسنا حتى دارت بوقاحة حول هيام التي لم تستطع أن تتوقف عن البكاء، والتي كنتُ أظنها حاسوبا فقط يؤدي عمله بمنتهى الدقة لكن هذه الإنسانة العادية في كل شيء أثبتت أن الوجود بأسره يتحرك في داخلها، صحيح أنها لا تملك شيئاً استثنائياً، لكنّها تخلق التميّز من البساطة، فهي تعمل وتعمل وتحب، ولقد عرفتُ ذلك عندما سألتها عما يبكيها فأجابتني: إنه لم يعد يحبني.

قلت: لمَ؟

قالت: إن الذي أحبه يلفظ الراء بطريقة غريبة، ويعتذر بالفرنسية إن أخطأ، ويتصرف بشكل مزخرف لم أجد وقتاً لأتعلمه، ولكوني واقعية قررت أن أنساه.

وهنا غصّت هيام، وشردت في ذكريات راحت تدور في فلك تلك الزائرة وتدور معها أيامها لتحكي لنا كيف أنها خُطبت للعذاب، وارتبطت بشخص مجرَّد مقارنته بالأول تعني بقاءها عانساً طول العمر.

ومنذ ذلك اليوم، يوم الدوران المجنون، وأنا أخجل من نفسي؛ لأنني لا أملك مشكلة أُهوِّن بها عليها وعلى سلوى، وكأنني المسؤولة، لستُ أدري لماذا؟ ولكن الأكيد أنني لا أملك حلًّا لهما، لذلك كلما التقت عيوننا أهرب من نظراتهن لأهرول بين السقف والأرض.

استمرّ الدوران، واستمرّت معه بالطيران في كلّ الاتجاهات، وهي تتمتّع بمنظرنا ونحن نتعثر ونواصل، ورؤوسنا منثورة في الغرفة.

أمّا رئيس القسم الذي كان مُعَلّقاً مثلها فوق الطاولة -لأن هذه هي عادته عندما يريد أن ينظر من الشباك ليتأكد من قدوم سيارة المدير العام، وهو يقول لاهثاً: لقد وصل- فقد كان أكثرنا توتّراً.

وعندما تعبتُ وتوقّفتُ في غفلة عنها لآخذ قسطاً من الراحة، رأيتُ علامات التعب أيضا على وجه غسان، وهو يحدّق فيها، فسألته لكنه لم يجبني، بل لفّ إصبعه في حركة دائرية، وعرفتُ حالاً أنه يفكر بمستقبله وكم سنة عليه

أن ينتظر قبل أن يكون له بيتٌ وزوجة وأولاد، لقد رفض الكثير من عقود العمل في الخارج؛ لأنه متمسك ببلده، لكنه أكدّ لي أيضا عندما خرج عن صمته بأنه يرفض أن يموت راهباً بين صكوك الغفران التي تعلو طاولته، أو مُمَزّقا بأجنحة لا أحد يعرف متى تقرر أن تتوقف لتهوي فوق رأسه ورؤوسنا جميعاً!

وفي كل مرة حاولت فيها أن أَنْفَلِتْ من نطاق تأثيرها، وأن أختبئ في زاوية لا تطالني فيها، كنتُ أُحس بأن المخ ليس أكثر من نقطة ارتكاز يدور حولها الرأس، ويدور لكن من دون جدوى...

وأخيراً، اكتشفتُ كم أنا محظوظة، فأنا في بعض الأحيان أستطيع التوقف، أمّا غيري فلا يملك أن يتوقف ليستجمع أنفاسه ولو للحظات يكتشف فيها سر جاذبية تلك المروحة.

مُرّة

لستُ أنا بطل القصة، بل مُرّة التي طالما سألتها عن اسمها، لكن إجابتها لم تتغيّر، فقط كانت تقول: إنها تنتمي إلى شجرة المرّ، ثم تتابع بعد أن تضحك ضحكة لم أسمع أجمل منها:

أنا مرّة ولحمي مرّ.

تعرّفتُ إليها يوم كنتُ في الغربة بعيداً عن وطني، أعمل في بلدة تنتمي للعالم الثالث عملياً وللعالم العاشر فكرياً.

وفي إحدى المرات بينما كنتُ أنتظر سيارة أجرة إذ بإحدى هذه السيارات التي تقودها امرأة قد توقّفت أمامي، ولمّا لم نتفق على الأجرة انصرفتْ، وما هي إلّا بضع خطوات حتى عادت السيارة أدراجها، وطلبت منّي سائقتها الصعود قائلة:

لن تجد (توصيلة) في هذا الوقت.

رميتُ الذهول ورائي، وصعدتُ بجانبها وكأني مُعتاد على رؤية سائقة سيارة أجرة حتى قبل ولادتي، وهكذا فالصمت أبى إلّا أن يكون راكباً ثالثاً بيننا، وقد أراحني ذلك لأنني في الحقيقة لم أكن مهتمّاً بالتعرّف إليها بقدر ما كنتُ مهتمّاً بمعرفة كم سيكون المبلغ الذي يجب عليّ دفعه، ومن جهة ثانية فقد أزال عنّي التوتر الذي تسببه قيادة امرأة لا أعرف إذا كانت ستوصلني لبيتي أو لحتفي.

سارت الأمور على ما يرام إلى أن وصلنا إلى مفترق طريق داهمتنا فيه سيارة أجرة مُسرعة من اليمين، تجاوزتنا ثم اعترضتْ طريقنا عن قصد توقّفتْ مُرَّة في آخر لحظة لتفادي الحادث المؤكد، نزلَتْ ونزلَ السائق الذي تعمّد استثارة مُرَّة قائلاً:

عشنا وشفنا امرأة تتعدّى على عمل الرجال.

ولحظة حسبتُ نفسي قد تخطّيتُ حافة المعرفة القصوى بها كامرأة هادئة قليلة الكلام وقعتُ في هاوية الجهل وتخبّطات التكهن، فقد ردّت على اعتداء الرجل بكل ثقة بالنفس:

الأفضل أن تبتعد عن طريقي حرصاً على سلامتك وإلّا...

ثارت ثائرة الرجل أمام هذا التحدي السافر وقال:

وإلّا ماذا؟ أريني ماذا ستفعلين، وما هو قياس زندك أم تراه نفس مقاس كعب حذائك؟

فلم يكن من مُرّة إلّا أن اتصلت بشرطة المرور واستدعتهم، فعاينوا الحادث وطلبوا أوراق السيارتين، ومن ثم قبضوا على السائق الذي لم يكفّ عن التوعّد والتهديد.

صعدنا إلى السيارة، وتابعتْ القيادة وكأنّ شيئاً لم يكن.

قلتُ: كان نصراً أشد مرارة من العلقم.

ومن دون أن تلتفت إليّ حتى لا تفقد تركيزها في القيادة أجابتني، وهي تضحك: ما الفرق؟ فأنا مرّة، ولئن كنت هناء فلستُ أنا ولا أعرفها.

لم تمض فترة على تعارفنا حتى أحسستُ أننا التقينا من قبل وراء هذا الأفق الغربي عند جبل التحدي بالذات حيث تنتهي هذه العقول القاحلة، وأننا أكلنا من نبتة الجرأة المقدسة وشربنا من نبع الخلود.

ويبدو أنها اكتشفتْ أنني أختلس النظر إليها، لأنها أجابتني ومن دون أن أسأل:

نعم لا مكان للتراجع، فأنا أعيش من وراء هذا العمل بعد أن طُرِدتُ من وظيفتي؛ لأنني لم أقبل مثلهم الرشوة والفساد، وأنتَ ما قصتكَ؟

وقبل أن أجيب أوقفت السيارة، وشمّرت عن ذراعيها وبدأت باستبدال الدولاب المثقوب بدولاب جديد.

قلتُ: القصة نفسها مع فارق بسيط، أنني عندما اكتشفت الأمور التي تحدث تحت الطاولة وفضحتهم، اتهموني بالرشوة والتزوير وحاكموني وسجنوني، وطبعا هذا جزاء من يجلس بين العميان ولا يقلع عينيه.

قالت : الحمد لله على سلامة عينيكَ ، فهما أجمل ما فيك.

ابتلعتُ خجلاً كان يطمع في المزيد من هذا الكلام، وكأني لم أسمع مغازلتها تابعتُ: وها أنا أنتقل من عمل لعمل مع تهمة مسجون التي لا تفارقني.

قالت وهي منهمكة في تصليح وضعية الدولاب: وها أنا أنتقل من عمل لعمل مع تهمة امرأة، وليكن، فأنا امرأة ولن يستطيع ابن امرأة أن يدفعني للهروب هذه المَرّة.

أنهت مهمتها، وقفت إلى جانبي، ضربت كفّها بكفّي وسألتني:

أيمكن أن يكون هناك صخرة نسكن إليها وسط الرمال المتحركة حولنا؟

أجبتها وقد التقت قطرات الثقة التي تساقطت من جبينها ببعض تفاؤلي: أنظري حولك!!....

ومن ثم صعدنا إلى السيارة، وبدأتُ أرى في مُرّة غير كونها السائق العجيب الذي يوصلني، أشياء أخرى حلوة ومثيرة، فشعرها المُجَعّد ورغم الربطة اللامبالية المعكوف بها كان يعلن حرباً في عالم الجمال، وعيناها البنّيتان تشعّان بتعب الدنيا وذكاء البشرية وغمازتها تُضفي إثارة على خدها الناعم، وبدأ خصرها النحيل المختبئ في الكرسي وراء المقْوَد يميل ناحيتي كلما مالت السيارة عند المنعطفات.

قلتُ وقد اختصر المنعطف الأخير طريق الأسئلة الطويل بسؤال واحد:

كم تطلبين مهراً لو أردتِ الزواج؟

فأجابتني: مهري هو أجرة هذه (التوصيلة).

عندئذ اتضح لي بما لا يقبل الشك أنّها لم تكن أقلّ إعجاباً منّي.

فقلتُ لها بكل ما أملك من صدق مشعّ من نظراتي، وبكل المحبة المدفونة داخلي والتي انتظرت فيضاناً حان موسمه:

كانت التوصيلة عبارة عن رحلة ممتعة.

قالت: فلتكن إذن رحلة العمر.

رحلة في رأس فياض

لم أشعر في يوم من الأيام بأّن الإنسان من نسل فنان تشكيلي إلاّ بعد أن رأيتُ تلك الخشبة السوداء المنحوت فيها عينان من دون بؤبؤ، وأنف كُسرت حربته وفم بلسان مُجَعلك من كثرة ما تذوّق مرّ الحياة، إنّها بقايا إنسان يُدعى فيّاض الموظّف في المستشفى الجامعي، والذي ودّع عقله منذ سنوات بعد حفلة تأبينية حضرتها أعصابه دون دعوة، أصبح بعدها المستقبل في نظره أياماً هاربة من كهوف قديمة تنفض عنها الغبار، وتولول في صدره طالبة العودة.

ولا أدري كيف أصبح فياض بالنسبة لي تمثالاً للحرية نُقل من مكانه، وعليّ أن أكتشف الأسباب:

- فيّاض لمَ ترفض التثبيت في الوظيفة كمساعد مخبري؟

وبهدوء عاصفة لم يبق منها سوى بضع نسمات، يجيب:

- لأنني طبيب.

وبالفعل، كان يتصرف على أساس أنّه طبيب، وكما عرفتُ فيما بعد أنّ مجموع درجاته في الشهادة الثانوية يؤهله لأن يدرس الطب، لكن ظروفه المادية لم تساعده، ممّا سبّب له عقدة ساهمت زوجته بخيانتها المتكررة له في تضخيمها، هذا إضافة إلى جهود زملائه الموظفين ممن يتمتعون بروح الفكاهة، فقد كان مجرد قدوم فياض إلى مكان العمل يعني أنّ الكراسي محجوزة سلفاً، وهناك مسرحية بطلها شخص واحد يسخرون منه وبالوقت نفسه يخافونه، وكأنّ أفعى تتزحلق على حنجرته كما تَزَحلَق ذلك السؤال في مخيلتي:

ماذا لو كانت ظروفنا قاسية مثل ظروف فياض ذي الشخصية الضعيفة وتعرضنا لضغوط حادة كالتي تعرّض لها، هل كنا سنقف مثله على حافة الهاوية أم كنا سندخل معه في سباق إلى حالة اللاوعي؟

والتفتُّ حولي، فوجدتُ ذلك الموّظف الذي لا يكفّ عن غسل يديه كلما أحضر إضبارة، وتلك الموظّفة التي تتفاخر بأنها تتأكد من إغلاق أبواب المنزل، ومفاتيح الكهرباء طوال الليل، حتى إنّ الوقت لم يتسع لها لإنجاب طفل واحد بعد سنوات

طويلة من الزواج، ومديري الذي يقضم أظافره، ويعض على شفتيه باستمرار، وأنا الذي أظلّ أسترجع ذكرى إخفاق معيّن باستمرار، حتى إنّني أتمنى أن أتخلّص من عقلي مثل فياض لأرتاح، فهو على الأقل له حاسوبه الخاص الذي يحسب على طريقته ليجعل منه طبيباً، لكنني لا أستطيع أن أحسب نفسي إلاّ رقماً في جدول الدائرة التي أعمل فيها، وزّعوني في خانة العشرات، وحجزوا المئات والألوف لأنفسهم بموجب قرار تعييننا الذي دفعنا دفعة لا مفر منها إلّا بالاستقالة.

وهكذا فالتفكير في مشكلة فياض أنساني فياضاً نفسه ، إلى أن قام المستشفى وقعد في أحد الأيام على صوت فياض، وهو يتشاجر مع رئيس القسم، هرعنا جميعاً، وحاولنا تهدئته إلاّ أنه وقع مغشياً عليه، نقلناه إلى غرفة الإسعاف، وعندما استعاد وعيه نظر إلينا، ولم ينطق بكلمة.

بعدها اختفى ومن دون سابق إنذار، ولم يترك أيّ عنوان له، بحثنا عنه طويلاً، لكن أحد معارفه أخبرنا بأن نتوقف عن البحث؛ لأنه سمع أنّ فياضاً أصيب بسكتة قلبية أَوْدَتْ بحياته.

وبعد فترة طويلة فقدنا الأمل بعودته، فأقمنا له عزاءً نُكَفِّر به عمّا بدر منّا وفيما نحن نتبادل التعازي حدث ما لم يكن بالحسبان ، إذ ظهر فياض فجأة وهو بكامل أناقته.

صرخنا جميعاً: أين كنتَ يا رجل؟

فأجاب بهدوء: لقد طردوني من الوظيفة، لكنني تزوّجت للمرّة الثانية.

وبالفعل فقد تزوّج من إحدى المجنونات، وهو ينعم الآن بحياة متعددة الاحتمالات ليس فيها من الروتين سوى أنّه زوجها، تناديه سيدي المدير طبيب المستقبل، فيدرك حالاً بأنهم خسروا خبرته التي لا تُعَوّض، وعندما يفقد الناس آذانهم يجدها تُصغي له إلى حدّ تتعب معه الكرة الأرضية من الدوران.

نظرتُ إلى فياض وكأني أراه للمرّة الأولى، واكتشفتُ في رأسه فجوة بين ما كان وما سيكون، لا يستطيع أن يمدّ عليها جسراً ولو من ضباب، سافرتُ فيها طيراً، ورجعتُ منها إنساناً أدرك معنى القسوة وما فعلته بهذا المسكين.

طوّل بالك

بعد أيام وأسابيع من التفكير والأخذ والرد، توصّل ساهر العصبي إلى أن صداقة الشخص الذي يسكن أوّل الحارة ضرورة من الضرورات، فقد ذاع صيت الرجل في أرجاء البلدة، حتى أصبح أشهر من النهر الذي يخترقها، وهذا ما جعل الإشاعات تكثر حوله، لكن الإشاعة الأقوى على الإطلاق هي:

من أنتَ من دون الرجل الخفي؟

فليذهب إذن ساهر، وليعرض عليه صداقة طالما رفضها من جهة وألحّ عليها الرجل من جهة أخرى، لكن ماذا لو غيّر الرجل الخفي رأيه، وأهداه الشعرة التي قصمت ظهر ساهر؟

الذي قال حالاً وبأعلى نبرة امتلكها يوماً وبصوت بدا واثقا: ما المانع؟ فليرفضني!.

وفي حقيقة الأمر، فإنه لا مانع من حدوث ذلك ما دامت الدنيا ترفضه وتقذفه من قطب إلى آخر ومن محور إلى آخر. وعند هذا المحور بالذات لجَم أفكاره، وبيد خجولة نقر الباب الذي تخيّل أنه لن يُفْتَح أبداً.

- من الطارق؟

استعان بصوته المبحوح والمستعدّ للهرب من حنجرته في أية لحظة ليقول: أنا أنا ساهر العصبي.

أجابه الرجل: أهلاً تفضّل.

سأله ساهر متلعثماً: هل أنتَ؟ أنتَ....؟

- نعم، أنا طَوِّل بالك الملقب بالرجل الخفي.

- اسمك غريب بعض الشيء!

- فلنقل غريب كلّ الشيء، على كلٍّ هو اسمي.

تلكأت أذنا ساهر بفهم الاسم، ومن ثم بدأ عقله يصبّ الغرابة التي باغتته سمعاً، في قالب الكلمات:

(طَوِّل بالك) تعني أن تكون بليداً، وألاّ تغضب، والأكثر من ذلك ألّا تقذف أية صفعة ولو كلامية في وجه الاستفزاز، الحمد لله الحمد لله، أنّني ساهر العصبي، وشَكَرَتْ يداه السماء على هذه النعمة.

وبعد قليل أيقظه طَوِّل بالك من شروده داعياً إياه للدخول: تريد صداقتي إذن، ولكنني لن أستمتع بصداقة رجل يُدعى ساهر العصبي.

ضحك ساهر ضحكة بارودية، تواطأ بعدها صوته مع شفاهه المغلقة ليقول فيما بينه وبين نفسه: إذن انقلب السحر على الساحر، يا للعجب! وأنا الذي كنتُ أستهزئ به وبشجرة عائلته......

ومن ثم نظر إليه مباشرة وقال: تفضّل، ماذا تريد أن تناديني؟ نائم العصبي يعجبك؟

- لا... ساهر وكفى، والآن أهلاً بك في استضافتي لمدّة شهر.

راحت الأيام وجاءت الأيام، وهذا الشهر مازال يلف ويدور عن قصد في محطات العمر، وبما أنّ النهاية قَدَر الأشياء انتهى أخيراً، ليعود ساهر إلى حياته الطبيعية، وهو مقتنع تماماً بأن العام أيّ عام هو أقصر من الشهر.

- ها قد عدتَ يا زوجي المصون!

استقبلته زوجته بهذه الكلمات الفاترة.

أجابها: نعم عدتُ.

أوقدت الزوجة النار تحت الكلمات: أين اختفيت وتركت الأمور معلّقة بهذا الشكل؟ أريد حلاًّ، الأولاد متعبون والديون تراكمت وأنتَ لا تحسّ بي وبمعاناتي.

وفي اللحظة الذهبية التي تلمع دائما كطوق نجاة له ، في هذه اللحظة بالذات التي تَعَوَّد أن يقول فيها: اذهبي إلى جهنم أنتِ

والأولاد، أنا غاضب، بتُّ أكرهكِ وأكره هذا المنزل، دعيني احتسِ سمِّي الصباحي. تَفَوَّهت تلك اللحظة بالنقيض تماماً، وسَمِعَته زوجته يقول:

اذهبي إلى الحديقة، خذي الأولاد في نزهة، أنا مُنكَّد قليلا ومزاجي مُتَعَكِّر بعض الشيء، سأتحسن بعد أن أشرب قهوتي، أحبّكِ.

انفجرت زوجته بالضحك، وكأنها سمعت أجمل نكتة للتوّ.

استطاع أن يبتسم لها هو أيضاً، ثم تعانقا وذهبتْ وذهب هو أيضاً إلى عمله، وهو يتمتم بالشكر لصديقه الرجل الخفيّ طَوِّل بالك.

وصل وألقى تحية الصباح على زملائه الموظفين، فبادره أحدهم بالسؤال - كيف أنتَ اليوم؟

وهنا وجد ساهر نفسه أمام خيارين أحلاهما معروف وواضح وضوح الشمس، فقد كان بإمكانه وعلى حد سواء أن يقول:

(زفت)، ويلَوِّح بيده تلويحة رفض لهذا الصباح وكل صباحات الدنيا، أو أن يقول: بخير، الحمد لله.

ولأنه لم يختر أن يلوّن يومه بسواد وشكل ورائحة الزفت، بل قرّر أن يشعر شعوراً حسناً هذا اليوم، فقد أجاب بحسم ولأوّل مرة في تاريخه كموظّف وكإنسان: بخير الحمد لله.

ولو كان الذهول يستطيع أن يجلس على كرسي لقام هذا الموظّف، وأفسح المجال للذهول ليجلس مكانه.

تابع الموظفون عملهم، وتابع ساهر العمل في الأضابير التي بين يديه إلى أن قاطعه أحد المراجعين بإلحاح:

يبدو أن إضبارتي لن يُؤَشَّر عليها أبداً، أنا قلق جداً ومستعجل لأقصى حدّ، أراد ساهر أن يقول: هل تشكّ في جهودي وعملي؟ هل عليّ أن أركب طائرة وأدور بين الدوائر الرسمية لأستعجلهم، الأجدر بك أن تصبّ جام حقدك على رتابة القوانين، بسبب أمثالك سأترك هذه الوظيفة اللعينة يوماً ما.

وقبل أن ينطق بجملة واحدة تتواتر بعدها بقية الجمل تلقائيا لتسوء الحالة أكثر وأكثر، ويحل الانزعاج خصماً ثالثاً بين الطرفين، قال وكأن يداً خفية استبدلت ذاك الكلام بهذا:

سأحاول جهدي أن أساعدك، كن مطمئناً.

طردتْ الطمأنينة مخاوف الُمراجع ، فاعتذر في الحال:

شكراً، شكراً لك، لا تؤاخذني.

عاد ساهر إلى البيت بعد انتهاء الدوام، وفي الطريق استوقفه منظر رجل يلطم وجهه، ويصرخ في وجه رفيقه:

أنا مكتئب لقد علَّقوا مشنقتي و.... و....

ولم يترك نوعاً من أنواع التهويل الموجودة في اليابسة والمحيطات إلاّ استعملها، اقترب ساهر منهما، وقف خلف ظهر الرجل المكتئب، وهمس في أذنه: كم مسماراً دقّوا في تلك المشنقة؟ عفواً، ما هو نوع الخشب الذي استعملوه؟

صُعق الرجل من الدهشة، ولم يستدر ليرى مُحَدِّثه، بل جَمَدَ في مكانه، ثم لم يكن منه إلاّ أن تمتم متلعثماً:

لا، لا أظن الأمر بهذا السوء، هو لم يصل إلى حدّ المشنقة، معك حق لعلني بالغت قليلاً، أقصد كثيراً.

قال ساهر محاولاً تهدئته: طَوِّل بالك....

التفتَ الرجل المكتئب فجأة، وقال: نعم؟

وفي الحال، هربت ملامح ساهر من هول المفاجأة، ثم ما لبث أن عاد إليه وجهه، حاول أن يمنع يده من الضحك، لكنها استمرّت بالاهتزاز، وهو يصافح الرجل ويسأله ببراءة واستغراب لا شماتة فيهما:

يا إلهي حتى أنتَ؟؟؟

مخالب الشيطان

وأدّبنـــي الزمـــان فـــلا أبـــالي
بـــــــــــــــأني لا أزور ولا أزار

عندما قرأت بيت الشعر هذا أحسست أنني أتأرجح على حافة العزلة وأنّ اختياراتي في الحياة خاطئة، وخاصة اختياري هذه البناية بالذات لأسكن فيها، فإذا كان شعار جاري الذي يقطن أمامي بيت الشعر ذاك، فكيف ستكون معاملته لي في المستقبل؟

تحاملت على نفسي، ورحت أتابع نقل أمتعتي إلى منزلي الجديد، وكلما صعدت الدرج، ووضعت شيئاً داخل البيت، أتخيّل نفسي مريضاً أدقّ الباب على جاري المكتئب، فيفتح باب الزنزانة ويشير لي إلى بيت الشِعر وذهبت إلى أبعد من ذلك، ففي اللحظة التي تسبق قرعي للجرس قد يُفْتَح باب بيت الشِعر، ومن ثم يُغْلَق بسرعة فأفقد أصابعي.

استقريت في البيت كقطعة من أثاثه، لا أتكلّم مع أحد، ولا أحد يكلّمني، إلى أن قررت أخيراً أن أطرق باب جاري الذي يقطن في الطابق الأوّل، فقد شجّعتني الابتسامة التي كان يقابلني بها كلما التقينا مصادفة في مدخل البناية.

- مرحباً، أنا جارك الجديد.

- أعرفك طبعاً، أهلاً وسهلاً، تفضّل، اسمي فرحان.

ورويداً رويداً كسرنا حاجز اللقاء الأوّل، وصرنا نتحدّث حتى في الخصوصيات.

سألني: هل تريد أن تسمع قصتي؟

- بالطبع

- منذ شهر توفيت زوجتي.

نظر إليّ، وهو يبتسم ثم تابع:

إثر حادث أليم فقدتُ فيه رجلي.

ابتسم أكثر ورفع البنطال عن رجله قائلاً:

هذه رجل اصطناعية، لكنها لم تؤثر أبداً على وسامتي، فالفتيات ما زلن يلاحقنني.

وأردف عبارته بغمزه من عينه، ومن ثم ضحك:

لكنها أفضل من الرجل الحقيقية؛ لأنها أقوى، أستطيع أن أرفس فيها بغلاً دون أن تلتوي.

قلتُ في نفسي: هناك مشكلة عنده، فهو لا يستطيع أن يختار تعبيرات وجه مناسبة لقصته الحزينة، أو ربما هو لا يستطيع أن يسيطر على حالة الضحك التي تنتابه.

قال: أنا قنوع ومتسامح وراضٍ بالقَدَر، إضافة إلى أني متصالح مع نفسي أنا ملاك.

ثم أكمل مقهقهاً: نسيت أن أقول لك: أَفْلَسَتْ شركتي منذ أسبوع، وحجزوا على أموالي.

تأثرت وصحت: يا إلهي!

انقلب إلى الوراء -وهو يضحك بهيستريا-: ما بالك يا رجل فالذي أتى بالمال يستطيع أن يجمع غيره، فلولا الأمل لَبَطل العمل، المشكلة مشكلة وقت.

قلت في نفسي: لا، المشكلة فيك، الأمل ضروري، لكن لا بأس من وقفة حزن صغيرة يحترم فيها الإنسان ذكرى عزيز فَقَدَه، أو يتأثر لما أصابه هو شخصيّاً، وبعد ذلك ينهض ليداوي جراحه. لا لا بالتأكيد أنتَ تُمَثّل.

قال: تخيّل، وأنا في وضعي هذا عُرِضت عليّ بطولة ثلاثة أفلام.

قلت: نعم نعم أفهمك ، فهذا العمل يلائمك تماماً.

- أتريد أن تُشَغِّل أموالك، وتنتج أنتَ الفيلم؟

- لا، شكراً.

ودّعته وهرولت إلى بيتي، أغلقت الباب وأصوات قهقهاته مازالت تلاحقني، واكتشفت الفرق الشاسع بينه وبين جاري مُكتئب.

فالأوّل يضحك ويبتسم إلى درجة أن الفرح اغتاظ منه.

والثاني يخاف الفرح، لأنه يضطره للابتسام، وهو بالطبع مما لا يرتضيه لنفسه، لأنه كان وما يزال يملك تعبيراً واحداً لاحظته عليه، ألا وهو القرف.

في اليوم الثاني ذهبت إلى عملي وأنا مرهق من زيارة البارحة، ويا لهول ما رأيت، و يا للمصادفة! لقد أصبحت الآن زميلتي في العمل، لكن كيف أقول مصادفة، وأنا يجب أن أعتاد على رؤيتها كل يوم؟ ربما لأنني أتمنى أن تكون هذه الرؤية الدائمة مصادفة تنتهي يوماً.

إنها وللأسف زوجة جاري مُكْتَئِب، يا إلهي! ها هي تتهرّب من العمل منذ اليوم الأول، وتطلب إجازة من المدير الذي أجابها بدوره:

- لكنكِ لست مريضة.

- ربما أمرض غداً.

وبالفعل فقد استطاعت أن تثبت حضوراً مدهشاً بادِّعاء المرض، لقد تميّزت بشيء لا يملكه كل إنسان، ولا يستطيع أن يفتعله حتى اضطر الجميع ومنهم أنا إلى إرضائها خوفاً من أن تثور أعصابها فتمرض.

لمّا عدتُ إلى البيت وقفتُ أمام المرآة، جربتُ أن أضحك، وبعدها صفعت نفسي كفّاً، بكيت، ثم غضبت وكسرتُ المرآة، ثم وضعت يدي على رأسي، تألمتُ وأخذتُ دواءً، ومن ثم جلست بهدوء على الكرسي الهزّاز أُفَكِّر:

الحمد لله ما زلت إنساناً، فأنا أستطيع أن أحزن وأفرح وأمرض وأغضب وأكتئب وأرفض أن أكون إنساناً بحلة واحدة، ولأكون مهزوزاً في هذا الموضوع بالذات، مثلك أيها الكرسي فهذا من دواعي سروري.

وبينما أنا مستغرق في التفكير، سمعت ضجيجاً في بيت جاري المقابل لي استغربت لأن جاري مُكْتَئِب قلّما يخرج من اكتئابه، لكن الضجيج أخذ يتعالى أكثر وأكثر، وما لبث أن تحوّل إلى صوت ارتطام أجسام بالحائط تلته صرخات مكتومة، عندها لم أستطع الانتظار أكثر، فاتصلت بشرطة النجدة، ثم حبست أنفاسي ووقفت أنتظر ماذا سيحدث.

داهمت الشرطة المنزل، وكما توقّعت تماماً كان جاري وزوجته مطروحين على الأرض والدماء تسيل منهما، واللص يستعد للهرب، ولحسن الحظ قبضت الشرطة عليه، وأسعفت الضحيتين.

وبعد عدّة أيام عاد مُكتَئِب وزوجته من المستشفى، لكن الغريب أننا عندما التقينا على الدرج لم يشكرني، ولم يبتسم حتى!

وبعد مرور أسبوع على الحادثة، جلستُ متفكّراً في فرحان ومُكْتَئِب وزوجته المتمارضة ومن هو الأسوأ بينهم؟

وتساءلت متى سيتعلم الإنسان أن يكون إنساناً؟

ففرحان ظلّ يحيك لنفسه أجنحة الملائكة إلى أن نبتت له مخالب الشيطان، وزوجة مكتئب هي الشيطان بعينه، أما مُكتئب فقد استمرّ.....

وقبل أن أُكمل، إذ بدقّات سريعة على الباب، فتحتُ الباب، وفوجئت بجاري مُكْتَئَب!!

قال لي: شكراً.

لم يتفوّه بكلمة غيرها، ثم دخل إلى منزله، وأغلق الباب.

وقعتْ الكلمة عليّ كما يقع إطلاق سراحٍ على محكومٍ بالإعدام، الذهول في حالتي لم يكن يكفي، ربما الرعب هو الذي يستطيع التعبير عني أكثر ومن دون قصد حانت مني التفاتة إلى اللوحة المكتوبة على بابه.

و يا لغرابة ما قرأت:

وعلّمنـــــي الزمـــــان بـــأن أبـــالي

بـــــــــــــــــــأني لا أزورُ ولا أزارُ

إس وعين

في أحد القرون الغابرة اشتهرت قبيلة تدعى إس بين القبائل بشراستها ووحشيتها، فهي لم تترك قبيلة من شرها، حيث كانت تغير على القبائل المجاورة شهرياً وليس سنوياً وتسلبها أرضها ومراعيها وأموالها ونساءها بينما اشتهرت في تلك الآونة قبيلة أخرى تدعى عين بمسالمتها ومروءتها وفي الوقت نفسه بشجاعتها ووقوفها بوجه الظالم ومحاربتها للمعتدين.

استطاعت إس أن تنتصر على القبائل المجاورة، وعيّنت نفسها حاكمة عليهم، ثم فرضت عليهم دفع أتاوة، هذا حتى تدعهم وشأنهم، إلّا أنها لم تستطع فعل ذلك مع قبيلة عين ولم تتجرأ على مهاجمتها بعد آخر هزيمة مُنّيت بها أمامهم.

وهكذا عاشت قبيلة عين بسلام مبدئي، لأن الحذر واجب وبالأخص عندما تكون أس جارتها.

امتازت فتيات عين بالجمال وكأنهن آلهة يونانية، فالقوام ممشوق والشعر أسود منسدل والعيون أجمل من عيون الغزلان، وأما الشباب فكأنهم تماثيل قُدَّت من صخر بعضلاتهم المفتولة وبشرتهم التي لوّحتها الشمس.

ولكن أجملهم وأشجعهم على الإطلاق الشاب فارس ابن شيخ القبيلة الذي يتسم بالذكاء والحكمة إلى جانب القوة وحبيبته قمر الزمان اللذان شاعت قصة حبهما، فقد فضحتهما نظرة العيون قبل دقات القلب، وقد قرّر الزواج بها في نهاية الشتاء.

وعلى الرغم من أن هذا الموسم كان فصل خير وبركة على جميع القبائل إلّا أنّ إس لا ترضى أبداً بما عندها، وها هو الوحش يُكشّر عن أنيابه مهما أطال إغلاق فمه، وبما أنّ القوة لم تنفع مع عين وكذلك التفاوض فلم يتبق إلّا الغدر.

وهكذا اتفقت إس مع بقية القبائل على مهاجمة عين ليلة زواج فارس وقمر الزمان، تلك الليلة التي تحوّلت من عرس إلى عزاء لا أحد يستطيع أخذه أو الإشراف عليه؛ لأن الجميع قُضِي عليهم، فكنتَ لا ترى سوى رؤوس تتطاير

هنا وهناك، وبطون تلفظ أحشاءها وعيون تجحظ وتطير من محاجرها.

وعبثاً حاول فارس أن يدافع عن أهله وأحبائه، لكن الكثرة غلبت الشجاعة ولمّا اقتنع أخيراً بعدم جدوى الاستمرار في القتال قرّر أن يلحق بقمر الزمان إلى مكان اتفقا أن يلتقيا عنده بعد نهاية المعركة.

وصل جريحاً ومغبراً ومحطّماً من الألم، عانقته قمر، ولمّا رأته يحمل رأس والده بدأت بالبكاء، ولأوّل مرّة في حياته بكى وهو يدفن رأس أحبّ إنسان لديه، وبعد ذلك مشى وزوجته على غير هدى حتى وصلا أخيراً إلى مدينة عربية أبّاً عن جدّ، حالما سأل عن اسمها عرفها، لأنه كان قد سمع عنها في السابق الكثير وعن كرم أهلها وجودهم وشهامتهم.

استقبله أهلها بمحبة وأعطوه بيتاً له ولزوجته، وتكفّل جاره تعليمه بعض الأشياء فقد كانت طريقة عيش أهل المدينة مختلفة كليّاً عن القبيلة، فالشِعر مثلاً ليس بضرورة من الضروريات وربما هو آخر الكماليات، ولقد أخبره جاره بأنه

ليس من الضروري أن يلقي قصيدة كلّما اجتمع أهل الحي في المجلس عند المختار، واضطرت قمر أن تستبدل بثوبها الطويل ثوباً أقصر، كما اضطرت إلى التخفيف من الأطواق والحلي التي اعتادت وضعها في رقبتها.

لكنها لم تعتد أبداً على أن تبادل زوجها نظرات الحب بين أربعة حيطان.

- ألن نتمشى في الحديقة وتقولَ لي شعراً تحت تلك الشجرة؟

- لا يا حبيبتي.

- ألا يتمشون ويجلسون مع زوجاتهم على العشب؟

- لا أدري، ربما ولكن نحن العيون علينا؛ لأننا غرباء.

وشيئاً فشيئاً اعتادت قمر الزمان أن ترى القمر من نافذتها بعد أن كان يركض وتركض وراءه، وأن تنتظر تَوَقُّف المطر للخروج من المنزل بعد أن كانت تتمشى مع فارس في أثناء هطوله، فيداعب وجهيهما وشعرهما وتصبح الكلمات ماءً مقطّراً، وألحان الربابة جدولاً يُحلّي الدموع، فترضى لأوّل مرّة

بقطرات الماء بدل الشِعر، وترضى بأن يصمت فارس ليستمعا إلى قافية أخرى غير قافيته.

وافتقدت حصانها الذي أهداه لها والدها، وهو ينهب حلبة السباق لتفوز به على الجميع، هي الفارسة التي لا يُشَقّ لها غبار.

أما اليوم فقد أصبحت ترمح في ثلاث غرف لا غير، تكنّسها وتنظفها وتطبخ، ومن ثم تجلس وتجلس بانتظار عودة زوجها من العمل مساءً ليأكلا ويشاهدا هذا الجهاز الغريب الذي يدعى التلفاز ، ثم يناما.

وككل نساء المدينة تقريباً، ها هي تصبح بدينة بعض الشيء، لكنها مازالت جميلة، ومازال فارس من وقت لآخر يكتب لها الشعر ويرسله في رسائل قصيرة على جوالها، ولأنها صغيرة في السن وذكية وكذلك زوجها فقد تعلّما وبسرعة طريقة أهل المدينة في العيش وأفسحا للحضارة مجالاً لتدخل حياتهما، حتى الشابكة لم تبق صعبة عليهما فقد اشترى فارس حاسوباً وصار يطَّلِع وزوجته على ما يجري في العالم واكتشفت بأنّ قبيلتها ولو كانت بالنسبة لها العالم كلّه إلّا أنّها

نقطة صغيرة على سطح الكرة الأرضية، وهناك الكثير من حولها وفوقها وخلفها وورائها من بلدان وبشر.

وفي مرّة طلبت من فارس أن يبحث عن موقع قبيلتها في الشابكة لتتواصل مع أقربائها، لكنها صمتت فجأة وكفّت عن السؤال عندما جاوبتها دمعة سقطت من عينه.

قالت بأسى: أجل لم يبق منهم أحد، على الأقل نحن بقينا.

لم يمض على حديثها هذا أيام حتى قامت القيامة، وكأن أحد شياطين الأرض قد سمعها وراح يضحك منها ملء التشفي الذي سمح به فمه الكبير بل وأكثر من ذلك قهقه حتى تشقّقت شفتاه ولفظ جوفه حمماً وبراكين ونيراناً قذف بها المدينة الآمنة، فما الذي حدث بالضبط، ومن هو الوحش المعتدي؟!

قالت قمر لزوجها: معقول أن تقوم إس بمهاجمة المدينة؟

أجابها فارس: لا أدري، ولكن معقول وفي هذه الحقبة؟

وبمرور بعض الوقت وباستمرار القصف على المدينة كَشَفَ المعتدي عن نفسه، ومن يكون سوى«إسرائيل» ابنة إس وحفيدة هذا الشيطان الذي يقوم معها الآن بتدمير كل شيء.

حلّقت الطائرات في سماء المدينة وتراكضت حتى الغيوم خوفاً منها.

تساقطت الصواريخ من كل صوب وحدب، ولم يعد يُسمع سوى صوت إقلاعها يئزّ أزيزاً ، وقبل أن تشطر الفضاء كان حراس السماء يتصدون لها فتسقط على الأرض لتشطرها، وهنا يُسمع صوتٌ آخر، صوت تفتت الأشياء.

أصوات أصوات، انفجارات، وآهات الأرض المتألّمة، لكلٍّ صوته ومنطقه في الموت.

كان لتفتّت الحديد صوتٌ يختلف عن تهدّم الحجر، أما الإنسان فكان يسقط من دون صوت وتتطاير أشلاؤه من دون ضجيج؛ لأن الصمت هو منطقه في الموت.

ويبقى السؤال: هل منظر موت الإنسان كإنسان أقسى أم منظر الدمار الشامل للمدينة بما فيه الإنسان والمكان؟

هذا السؤال وأسئلة كثيرة دارت في خاطر قمر الزمان من دون أن تمتلك قدرة ترجمتها إلى كلمات.

ولما استطاعت أخيراً أن تعبّر عن بعض ما يُحيّرها سألت زوجها:

أين دموعي هل نشفت؟ وهل تراني بدأتُ أعتاد منظر الموت؟!

أجابها زوجها بحكمته المعروفة:

هناك شيء لا تعرفينه يا قمري: إنّ داخل كلٍّ منّا بئراً جوفيةً تبتلع الدموع والحسرات والآلام التي تمشي في أخاديد، بعضنا ينضح وهي في طريقها إليه جزءاً منها وليس كلّها؛ لأنّها لا تنتهي، وبعضنا الآخر يجمعها كاملة في تلك البئر، وإلّا كيف تفسرين أنّنا لم ننشف ونجفّ بعد أن قُطِعَت المياه عن المدينة؟

وتابع فارس وهو يُمَسِّد شعرها: أمّا عن الموت، فالموت هو الموت ومستحيل أن يعتاده الإنسان.

رفعت قمر رأسها وبحركة لا شعورية طبعت قبلة على فمه، وراحت تتأمّله:

(ما أجمله وهو شارد!)

كان فارس ساهماً ينقل نظره بين الحاسوب والجوّال وشاشة التلفاز، ومن ثم ينظر من النافذة إلى سيارته التي تقف أمام البيت والتي لم تغتلها القذائف بعد، وإذ بالكهرباء تُقْطَع فجأة، عندها الْتَفَتَ إلى زوجته قائلاً بحسرة: ما فائدة الحضارة وسط هذه الحرب؟! مسكين إنسان المدن، أتعب عقله باختراعات مصيرها الدمار.

أجابته قمر الزمان:

لكن ألم نُدَمَّر عندما كنا في قبيلتنا ننام في الخيمة؟

جاوبها: الحرب هي الحرب.

وانتزع نصف ابتسامة من شفتيه المتيبستين لم تكتمل؛ لأنها ذوت شيئاً فشيئاً وهو يسمع صوت انفجار هائل استفاق منه ليجد زوجته ملقاة في حضنه ورأسها ينزف، لم يستوعب ما حدث، صرخ بالقدر الذي ساعدته أنفاسه المتقطّعة به، لأنّه كان مثخناً بالجراح أيضاً:

حبيبتي لا تتركيني.

لكن الحياة قرّرت قبل أن يفترقا ويفارقاها أن تمنحهما دقائق للوداع بعد أن منحتهم الجحيم على شكل قذيفة صاروخية

سقطت عليهم بفضل إس أو عفواً، ابنتها إسرائيل التي قامت بإطلاق صواريخ مجنّحة إستراتيجيّة تحمل رؤوساً تقليدية زنة الواحد منها ألف كيلو غرام، كُتب عليها: المرّة القادمة ستكون نووية، وأما عن مداها فهو أي دولة عربية تعتنق العروبة وليس فقط تنطق بلغة الضاد.

واليوم يبدو أنه تمّت برمجة الحاسب على متن الصاروخ لكي يبلغ إحداثيات نقطة ما، فيها هدفان أرضيان هما رأس قمر وقلب فارس، لعلهم حسبوها مطاراً مخصّصاً للطائرات الإستراتيجية في البلدة أو قاعدة عسكرية بحرية، أو لربما أغاظهم الحاسوب الموضوع على الطاولة حيث شكّوا بأنه يُمَثِّل شبكة اتصالات مخصّصة لمنظومة القيادة الفضائية التي تربط قبيلة عين بالمدينة، أو مركز تنصّت إلكتروني لحساب عين، أو... أو... أو...

ما أكثر «الأوّات» وما أبعدها عن الشبه بالآهات التي كَبَتَها فارس الذي يقطر قلبه دماً محاولاً ألّا تشعر قمر الزمان بأي شيء؟!

وبإصرار الرجل العربي وعناده بقي قوياً حتى آخر لحظة، وتحامل على نفسه ليهمس في أذنها مكملاً الحديث:

الحرب هي الحرب يا قمري ، لكن هناك استطعنا النجاة بعد أن هربنا من السيوف، أمّا الآن فأين سنهرب من هذه النيران المحمومة التي تحرق الهواء والماء؟!

قالت قمر الزمان الذي لن يسطع بعد الآن: أكمل لي القصيدة .

مرة أخرى وبصعوبة أكثر تحامل فارس على نفسه، واختلطت قوافي القصيدة مع قوافي الموت لتعزف أقسى وأروع لحن عرفته البشرية على الإطلاق.

فهرس

الصفحة

الصفحة

ديما بعاج

- مواليد حلب ١٩٦٩.
- حاصلة على الإجازة في اللغة العربية وآدابها من جامعة حلب.
- نشرت قصصها في الصحف والمجلات السورية والعربية.
- مديرة نادٍ رياضي سابقاً.

الطبعة الأولى / ٢٠١٧م

كلمة الغلاف

لا تغاري من زهورٍ لا تضاهيك جمالاً

لا تحاري من نجومٍ لا تحاكيك دلالاً

فإذا الشمس أنارت بعثرتها كالظلال

وإذا الشمس توارت فرَّقتها كالخيال

سورية حبيبتي . . . حلب عشقي